محمد عبدالملك

غليون العقيد





خلود العقيد / قصص قصيرة

محمد عبد الملك / مؤلف من البحرين
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة

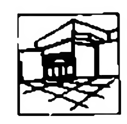


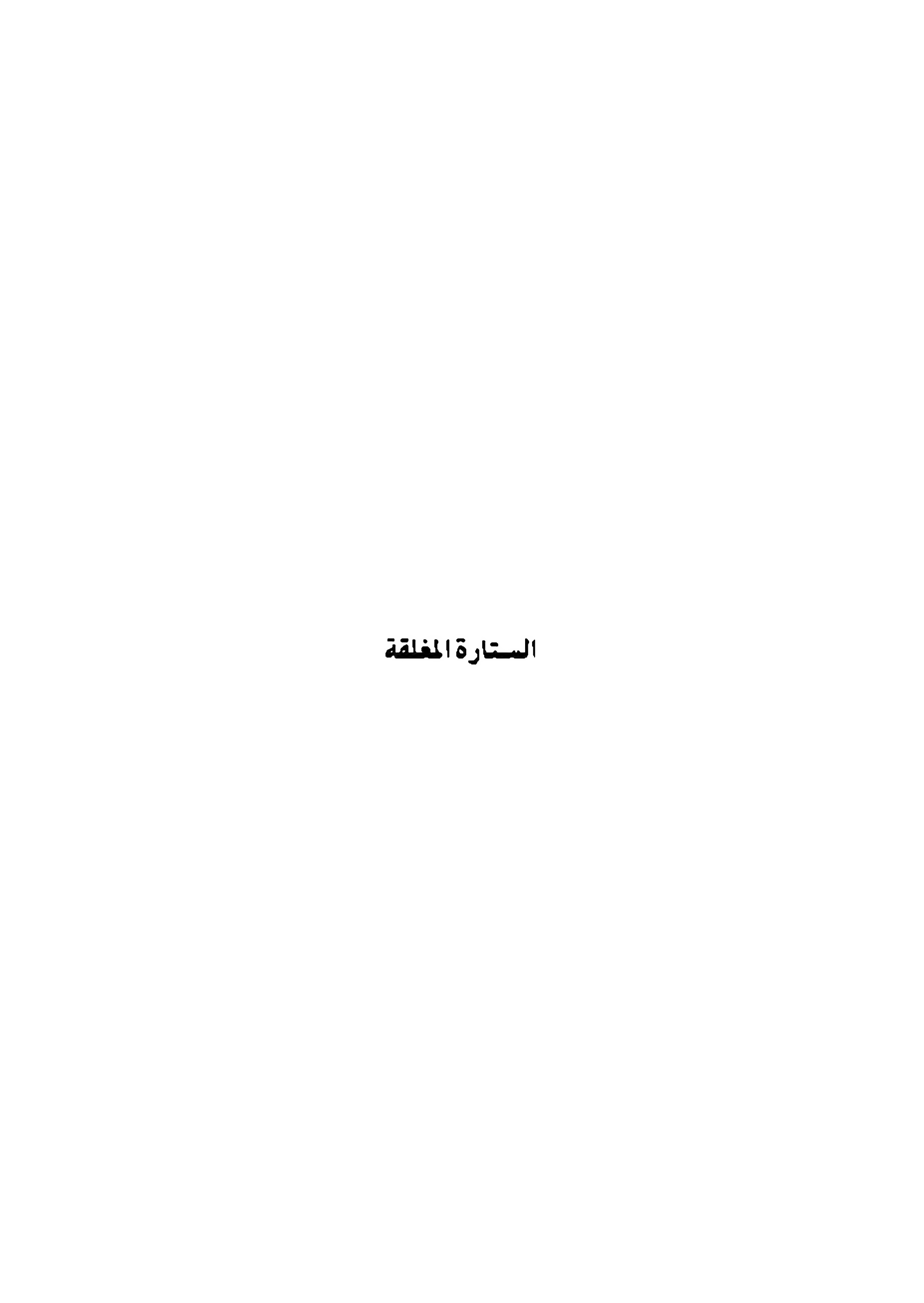

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفني : أنس الشيخ
اللوحات الداخلية : جاسم الدوسري
التنفيذ الطباعي :
مطبعة سيكو، بيروت ـ لبنان

محمد عبد الملك

غليون العقيد

قصص قصيرة



الستارة المغلقة

لم أعرف أن هذا الفندق يطل على مقبرة المدينة . . كنت مرهقاً بعد رحلة طويلة شاقة ، وليس لي إلاّ أن أنام . فتحت الستائر وانكشفت لي قبور متجاورة . قبور تتجمع وتلتقي ، تخرج من مكانها وتتزحزح وترجّ كالماء ، وتطفو إلى الأعلى ، جامحة تضرب بعضها البعض ، والشواهد تنهار بلونها الرمادي والأبيض أما القبب الصغيرة فكانت ملفوفة بخرق خضراء . لم أخبر زوجتي بالأمر ، كانت مشغولة بالاستحمام بعد السفر الطويل . أسمع رشرشات الماء على البلاط وأرى الأباجورات الموضوعة بعناية .

لم أغلق الستارة . ولفت انتباهي دخول جماعات من الرجال بجنازة من الباب الشرقي للمقبرة . كان الرجال يرتدون ملابس بيضاء ناصعة ، وكان النساء من خلفهم يمشين كالغربان بعباءات سوداء . لا إرادياً فتحت النافذة . . جاءني هواء هذه المدينة الساخن الذي يبرد في الليل . كنت أريد أن أتبع صوت هذه الجنازة . سمعت الولولة أولاً . . جاءتني مع هبوب الريح من الشرق . كانت البوابة التي دخلوا منها منهكة لها حديد صدئ ، النصف الآخر

من البوابة كان ساقطاً على الأرض . وضعوا الجنازة على الأرض وارتفعت زغاريد . التقى النساء والرجال واختفت الجنازة . ماذا لو شاهدت زوجتي هذا المنظر؟! وكيف اخترنا هذا الفندق لشهر العسل؟ اتخذت قراري بالفرار من هذا الفندق في أقرب فرصة . لن أخبر زوجتي . . لكنها ستفتح الستارة بالحتم . نمت على المقعد الذي بجوار السرير وأنا أنتظر دوري لدخول الحمام . كانت الرحلة طويلة بالطائرة ، طويلة استغرقت عشر ساعات . رحلات الترانزيت متعبة ، لم أفق إلاّ في الليل . عندما فتحت عيني كانت زوجتي جالسة أمامي عند ميز التواليت تصلح زينتها . قالت لي من دون أن تلتفت :

ـ نمت ٥ ساعات . . وتركتك ترتاح . . فالليلة ستسهر حتى الصباح . .

لم أجبها ، كنت لا أزال في حوزة النوم . نمت بثياب السفر . حلمت أحلاماً مفزعة . كانت رأسي ثقيلة . قلت لزوجتي :

ـ كيف نمت؟

ـ على المقعد . . وبعد ذلك حملتك بصعوبة إلى السرير . .

ـ أنا نهضت بنفسي؟

ـ بمساعدتي . .

أخفيت على زوجتي صور الحلم الذي رأيته .

كان الضوء في الغرفة خافتاً ، ينبعث من الأباجورات في جوانب السرير . انتبهت إلى الستارة عن يميني ، وحمدت الله أنها لا زالت مغلقة . كانت زوجتي نائمة طول الوقت أيضاً . قالت لي :

ـ قرأت برنامج السهرة في هذا الفندق وحجزت طاولة لشخصين . .

هل أخبر زوجتي عن المقبرة؟ قلت لها :

ـ سننتقل عن هذا الفندق غداً .

قالت :

ـ أنا مرتاحة هنا لا داعي للتغيير . .

ـ أظن أننا أخطأنا في ذلك . .

ـ هو فندق خمس نجوم؟

ـ نعم . . لكن موقعه غير مناسب . .

ـ من أي جانب . . هو وسط المدينة؟

ـ نعم . .

تردّدت ، لكنها ستعرف ، لا بد وأن تفتح الستارة بعد قليل ، هذا هو طبعها ، وطبع كل مسافر ، يريد أن يعرف ما حوله ، وما بجواره ، المنظر الخلفي للغرفة . .

لم بنوا هذا الفندق هنا؟ كيف ارتكبوا هذه الحماقة؟

قلت :

ـ على كل حال . . أنا موافق على المكان الذي يعجبك .

ـ خلاص . . يعجبني هذا الفندق . . أدخل الحمام واطرد عنك كل النوم .

قلت لها :

ـ لا أريد الخروج من الغرفة الليلة . . الظاهر أنني مصاب ببرد ، وعلي أن أستريح في الغرفة . .

كانت في كامل زينتها ففوجئت بقراري .

ـ هل جئنا إلى هذه المدينة الجميلة للنوم؟

ـ الأيام قادمة . .

ـ وهل ينامون في شهر العسل؟

كنت مكتئباً . أصبت بالاكتئاب منذ خمس سنوات . وكان الموت يزورني كل مساء في هيئة صامتة : جسدي ممدد فوق نعش خشبي طويل ، وعيني مغمضة ، جسدي مغطى بزيت ، وهو غامق وعميق ، ومجموعة من الرجال يحملونني إلى المقبرة . يغشاني العرق ، ويضيق صدري ، ويركض الخوف . أصاب بهلع شامل . لا أتحدث . أفحص حبات العرق فوق جبهتي في الشتاء . لم أخبر زوجتي عن الاكتئاب . . ستكتئب هي الأخرى . ضغطت الجرس وأنا أقول لزوجتي :

ـ سنحتفل هذه الليلة في هذه الغرفة الأنيقة الممتلئة بالسجاد وصور النساء الجميلات .

فتحت زوجتي الراديو . وزارتنا الموسيقى هادئة ، ناعمة . . وتدفق شعور من الفرح في عينيها . رأيتها تستدير إلي ، بفستانها الأسود مكشوف الكتفين ، وفي شعرها الفاحم وردة صفراء .

كانت في غاية الجمال . قالت وهي تزيح شعرها فتظهر عيناها النجلاوان بكل طلاوتهما الشهية .

ـ كما تشاء . . كل مكان أنت فيه جنة .

وجاءت وطوقتني . أنعشتني العطور الجديدة الباذخة . قالت :

ـ لن أخلع فستان السهرة . .

ـ ليكن . . سأرتدي أنا البدلة . . بدلة الزواج . . ومن يدري . . قد نخرج فجأة آخر الليل ونتجول في المدينة ، ولا نعود إلاّ في الصباح . هذه المدينة لا تنام . تسهر وتزدان بالأضواء وتعمّها الحركة . ويرتاد العشاق حدائقها ومقاهيها . . مدينة صاخبة للمتزوجين والعشاق . . والعابثين في الحياة . .

وسمعت طرقاً بالباب فقلت :



ـ النادل؟

- فتحت الباب ، ودخل النادل وأخرج دفتراً من جيبه :

ـ ماذا تطلبين يا بشرى؟

ـ كأساً من الحليب . .

ـ وأنا أريد بيرة مثلجة . .

بشرى ابراهيم :

دخل زوجي صلاح الحمام . كنت أسمع صوت الماء والموسيقى الهادئة . دفعني اللاشعور إلى الستارة . عجبت كيف غفلت عنها كل هذا الوقت . فتحت الستارة ورأيت مقبرة . شواهد قبور صامتة وناتئة ، قبباً كثيرة داكنة . وكلاباً تجوس بين الضوء الذي يكشف عن جوانب من شواهد القبور . وقفت صامتة . لم أتوقع ذلك . . مقبرة بجوار فندق؟! ما السرّ؟ شعرت بانقباض ، يجب أن نرحل غداً من هذا المكان . . الآن؟ لا . . دفعنا للفندق أجرة اليوم . . غداً في الصباح ، صلاح مريض ولا يستطيع الانتقال كما يبدو ، وسينزعج من هذا الانتقال السريع . . غداً في الصباح أخبره بالأمر . سأغلق الستارة . . يجب أن تبقى هذه الستارة مغلقة الليلة ، الليلة على الأقل ، حتى لا نفسد هذه الليلة ، حتى يبقى صلاح في حالة متوازنة . . لو أخبرته بالأمر فقد يكتئب . . بالحتم سينزعج كثيراً . . هو الحساس المرهف يكتشف مقبرة في مكانه ، في غرفته؟ كنت أشعر أن المقبرة تزحف إلينا ، هنا في جانب الفندق ، تدخل الدهليز ، وتتخلل الجدران . . وتستقر على السرير . . المقبرة تتحول إلى أثير . . تزحف وتدخل في كيان الفندق ، كأنها جزء منه ، وكأنها بنيت مع الفندق ، وستزال معه . . أحسست بحميمية إلى المقبرة ، كنت

أهرب إليها الآن بنفسي ، أقترب من الشواهد والقبور وأنام على الاسمنت السميك تحت الضوء والظلمة المختلطة ، أشعر بالندى المحمول على نبات ظاهر بين القبور . الشواهد تتحرك ، تقفز ، وجدران المقبرة تنتكس وتميل . . أسمع صفير زوجي داخل الحمام وإيقاع الموسيقى الذي يتحول . الستارة مفتوحة ليس كلها . . سأخفي الأمر على صلاح . . ليعلم غداً في الصباح . . نكون قد استرحنا ، وبعد نوم عميق نرحل . . لكن هل تبقى الستارة مغلقة إلى الغد؟ وماذا لو أراد أن يفتح الستارة؟ كيف أمنعه؟ . . لم أخش الموت كثيراً في حياتي . هو أمر عادي ، أتوقعه كما أتوقع خروج زوجي من الحمام ، كان أهلي يعجبون من ذلك . وفسروا هذا بغلاظة القلب . أنا مؤمنة بالله . . وهذا سرّ الفتي مع الموت . . لكن زوجي . . آه! أعرف أنه مكتئب . . ويتعاطى دواء الاكتئاب . . ويخفي علي ذلك . الله يرحمنا . . لن أدعه يفتح الستارة .

لِمَ يضيئون هذه المقبرة؟ ولِمَ هذه الأضواء الضاجة على امتداد هذه المقبرة؟ في وسط المدينة؟ وهذه نافورة ماء منطلق ، وسيارات جميلة تصعد الطريق الجنوبي ، ومقاه كثيرة تقابل المقبرة والفندق ، وخمارات ، ومراقص . . فتحت النوافذ ذات الزجاج السميك ، وانحدرت إلي موسيقى من أسفل قاعات الفندق ، أنا في الدور الخامس ، وجاءتني الموسيقى من الدور الثاني . في هذا الدور المطعم الفخم ذو الثريات الكبيرة والموحية والرخام . الفرقة ستغني هنا في الطابق الثاني . والمرقص في الطابق الأول . سأشتري ورداً من سوق الفندق العام . . ليت صلاح يوافق على الذهاب إلى الحفل؟ هل ينعشه الدوش الساخن؟ أراه يصفر؟ من يدري؟ سنذهب إلى الحفلة الصاخبة . الموسيقى التي أحبها . أريد أن أخرج من هذه الغرفة . . أن أطير . . أطير . . لن أدع صلاح ونفسي في حجرة مقفلة . أنا وهو وفي شهر

العسل؟ . . لن أدع حبيبي ينام عابساً حزيناً . . سنخرج . . سنخرج . . أعرف كيف أقنعه . . والتذاكر في يدي . . وإذا لم يوافق سأزعل ، وإذا زعلت فهو لا يقدر على زعلي . . سيوافق . كان صلاح خارجاً من الحمام . منتعشاً ، وجاءتني سخونة بخار الحمام . كانت الستارة مقفلة . ولا أدري لم نظر إلى الستارة أول ما خرج من الحمام . قلت :

ـ صلاح . . أنا أريد أن أسهر . . يبدو لي أن الحفلة في الطابق الثاني جميلة . . إعلاناتها باهرة . .

ـ تظنين ذلك؟

ـ نعم . . لم يخب ظني قط . . وهذه مدينة الطرب والحياة . . والفندق خمس نجوم!

ـ ما يعجبني فيك يا بشرى هذا التفاؤل المفرط . . لا أدري بسببك أو بسبب الدوش الساخن ، أشعر بتغير والظاهر أننا سنغير رأينا . .

صلاح هاشم :

كيف فاتتني هذه الفكرة ، كان عليّ أن أدعوها أنا للخروج . لأهرب بها من هذه الغرفة . . لن تفكر في فتح الستارة إذا كانت خارج الغرفة . نذهب إلى السهرة . ولا أعتقد أن مطعم الفندق ـ حيث تقام السهرة ـ مفتوح على المقبرة . . هذا مستحيل . المطعم سيكون بالحتم في واجهة المدينة . . الواجهة الضاجة بالنوافير والأشجار . . لأوافق على اقتراحها من دون تردد . .

بشرى ابراهيم :

كم كنت سعيدة عندما سمعت زوجي صلاح يقول لي بسرور وترحيب :

ـ لنسهر في المطعم السفلي في الدور الثاني . . نفسي مفتوحة للحياة . .

ارفعي صوت الموسيقى . .

ـ التذاكر جاهزة يا صلاح . . حجزنا منذ أول دخولنا . .

ـ هذا شأن النساء دائماً ، تواقات للحياة . . وهذا أجمل مزاياهن العريقة . .

ـ كنت مصممة على الرغم من تعب السفر أن نسهر هذه الليلة . . ألم يذهب التعب مع النهار؟

ـ أين البيرة! البيرة المثلجة!

حمل زوجي البيرة وصبّها في كأس طويلة وارتفع الزبد إلى أعلى الكأس . بعد دقائق ارتفعت قهقهاته عالياً في الغرفة . كان يرتدي بدلته الزرقاء ، ويكمل زينته ، ويجرع البيرة بين آن وآخر ، ويمازحني كعادته . . كنت أجلس بجانب الستارة . . ويبدو أنني نسيت . غمرني صلاح ببهجة مفاجئة سريعة . . نسيت ، يبدو نسيت . . قال لي :

ـ تعالي أريد أن أهمس في أذنك . . وقبلني قبلة حارة . .

ـ إلى السهرة!

قال ، وهو يمسك يدي ونفتح الباب ونخرج .

صلاح هاشم :

في الطريق إلى السهرة ، إلى الطابق الثاني ، سبقنا الهرج في الفندق ، الندل الحاملون الزجاجات والفواكه . الخدم بملابسهم الزرقاء السماوية وهم يحملون الحقائب . الأزهار والنبتات الخضراء في الممرات . . والنساء الجميلات طبعاً ، بالملابس الجديدة للسهرة . . كلهم يتدفقون في المصعد الكبير في اتساع غرفة . . إلى الطابق الثاني . . ضغطنا زر الطابق الثاني

فقط . . وأعلن الضوء الأصفر بداية توقف المصعد . . زرافات كنّا . . الموسيقى ، والجو الحالم ، الأضواء الخافتة والديكور الكلاسيكي القديم ، والطاولات تتوسطها سلّة الفاكهة والنادلات الجميلات . . كان المطعم يغص بالحضور من جنسيات مختلفة بين رنين الضحكات وهي تتشظى . أعطيت النادل البطاقة فقادني إلى طاولة صغيرة بجانب لوح زجاجي كبير عريض . . خلف اللوح الزجاجي كانت المقبرة أيضاً في مكانها . . وكأنها تنتظرنا هنا أيضاً . . دهشاً جلست . لم تلحظ زوجتي شيئاً حتى الآن . . قلت للنادل :

ـ هل يمكن تغيير هذا المكان؟

أشار إلى الناس المتزاحمين على المقاعد وقال :

ـ هذا هو المكان الوحيد الموجود . . طلب هذا المكان كثيرون قبل مجيئك . . أنت محمود يا سيدي . . هذا المكان يطل على المدينة . . وتستطيع من هنا أن تكتشف كل القاعة!

قلت : ـ إذن . . شكراً . . لا بأس!

بشرى إبراهيم :

كنت أعرف أن صلاح سينزعج لو عرف الأمر . كنت في غاية الدهشة ، إذ لم أتوقع أن تكون المقبرة هنا أيضاً في السهرة ، بين الناس ، وأن أحسها في الظلام المحيط بالأسوار والمدينة والفندق والطاولات . . كنت خائفة أن يكتشف صلاح ذلك فجأة . . وقلت للنادل :

ـ أرجو أن تجد لنا مكاناً آخر فيما بعد . .

قال النادل :

ـ سأحاول . .

صلاح هاشم :

قررت ألا ألتفت إلى الوراء . أعطيت المدينة والمقبرة ظهري ، وأعطت بشرى المقبرة والمدينة ظهرها . كنا بهذه الهيئة نقابل «البند» وصالة الرقص تماماً . وجدت في هذه الهيئة ما يخالف التآلف والتناسق مع «البند» وصالة الرقص التي توجهت الأجسادِ والأنظار إليها . . كنت مأخوذاً بالحفل . والرقص والموسيقى ، نسيت . . لكنني بين آن وآخر كنت أفكر في بشرى . . لا أريدها أن تعرف . . أنا نسيت وهي قد لا تنسى لو علمت بالأمر . قضينا سهرة ممتعة ورقصنا في حلبة الرقص . . وفي إحدى الصولات كنا عائدين إلى مقاعدنا من الحلبة الصاخبة ، وجدنا نفسينا نقابل المقبرة ونحن نمسح عرق الرقص . . ولم نعط المقبرة ظهرنا بعد ذلك . . رأينا كل شيء معاً ، وعرفنا كل شيء معاً ، وعرفنا أننا كنا معاً نعرف الحقيقة ونخفيها عن بعض . . فضحكنا للنكتة . في غرفتنا ، في الدور الخامس كانت الستارة مفتوحة . . حين غبنا في عناق طويل . . لم نكن نرى أو نعرف شيئاً . . أو نحس إلاّ بوجودنا . . أنا وبشرى في المكان .



الملك ميداس

قال الملك ميداس :

ـ [أيها الإله ديونيزوس العظيم إجعل كل ما تمسه يداي يتحول إلى ذهب!] . وذات يوم مشرق جميل ، صحا وهو في سرور بالغ . نظر من نافذة قصره إلى ضياعه المنتشرة كالشعاع ، وبساتينه الممتدة كالسماء ، وقصوره المتعددة ، وشعر بسعادة عظيمة وامتلأ بالغبطة . عندما لمس الملك ميداس النافذة تحولت إلى ذهب! وأمام دهشته وسروره راح يمسك بسرعة كل أدوات القصر من ثريات ومقاعد ، وأسرة وجدران ومخدات وسجاد فتصير ذهباً! ونهضت فيه روح الدنيا الجميلة ، وحبا مثل طفل على السجاد الثمين يلمسه بيمينه ويساره فيتحول إلى ذهب! وأطلق لخياله العنان فبوسعه أن يغتني أكثر ، ويتفنن في الغنى . وتوالت أحلامه الجمة وركضت في عقله مثل خيول وحشية . وملأته طاقة حية للعيش في كنف القوة والمال حيث يرضخ كل شيء لإرادة كفيه السحريتين . كان من هوسه يلمس كل شيء بيديه الاثنتين بما في ذلك ملاعق الطعام وكؤوس الشراب والمناشف .

وعندما انتهى من تحويل كل ما في القصر إلى ذهب ، طلب مركبته الملكية ، وحُمل على محفة ذهبية من باحة قصره إلى المركبة . وانطلقت الخيول الأربعة الجامحة إلى بساتينه الشاسعة المليئة بالثمار والفاكهة . وأمام دهشة الجميع ، راح الملك ميداس يعرض سحره العظيم على الوزراء والوجهاء والأعوان . يلمس التفاح فيتحول إلى ذهب مدور لامع تحت ضوء الشمس . ويضع إصبعه الكبير على عنقود عنب فيصير ذهباً! وفي احتفاء وبهجة راح يلمس الأغصان والأشجار والسنابل على التوالي وهو يضحك فتصير ذهباً . وانشغل الملك بهذا السحر الذي منحته الآلهة . وعاش يجمع الذهب ويفكر في الذهب وينام في غرفته الذهبية على سريره الذهبي . ومنذ الصباح كانت الخيول المسرجة الأربعة ذات الأسرجة الذهبية تركض في الحقول والغابات فتتحول إلى ذهب . وتجري في الصحاري فتصير رمالها ذهباً! وعاش الملك ميداس في حموة الذهب .

وبعد أن حول ممتلكاته إلى ذهب ، راح يفكر في ممتلكات الآخرين ، فيشتريها بالذهب ويسطو عليها بنفوذه حتى ، تملك كل البلاد . وانشغل بالذهب وكمم أفواه الحكماء بالذهب . وقطع رؤوس المعارضين بسيوف ذهبية . ورعى جيشاً عرمرماً مخيفاً للترهيب والبطش . وحلت لعنة المال والذهب في بدنه ، وراح يغير أحذيته الذهبية ودروعه الذهبية ، وحلله الذهبية في اليوم الواحد عدة مرات . ويشرب في كؤوس ذهبية من خمر الدنيا . وأصبح الملك ميداس عبداً للذهب ، ينتجه ويطيعه كل الوقت ، ويخضع لرغباته ونزواته ونظامه . ونسى الملك وطنه وأهله . ولم يعبأ بتذمر العامة ولا سخط الحكماء في المملكة . والتفت من حوله جوقة الشياطين والمهرجين والمنافقين الذين زينوا رغباته ونزواته ومجدوا طمعه وحمقه ،



وسجدوا لأوامره ونواهيه حباً في الذهب الذي فاض من خزائنه وكفيه .
ركض الملك ميداس وراء الذهب كما يركض الأرنب وراء الجزرة ، معطياً قفاه العريض للشعب الهائل . إزاء ذلك استغل ذوو المناصب غفلته وحبه للمال والذهب ، فعم الفساد دولته ، وأثرى أعوانه من الوزراء والوجهاء والمقربين ، ونُهب بيت المال فلم يبق للفقراء إلا النذر اليسير . الحكماء والفقهاء في المملكة وحدهم انشغلوا بهذا البلاء . كان الملك ميداس يرى صوره الذهبية في الساحات العامة والقاعات ، والشوارع ، وصكوك العملة فيمتلىء غبطة . وكانت سلطاته ترسل أولاد المدارس لتحيته في الشوارع فيبهج . وذات ليلة جاع الملك ميداس وشاء أن يأكل من وعاء الفاكهة الذهبي في قصره . كانت الغرفة مقلقة والساعة موغلة في الليل . هبط الملك ميداس من سريره فسقط على الأرض . وعندما رفع صوته كان واهناً فلم يحضر أحد . وزحف على الأرض إلى المائدة ، وما أن لامست يده تفاحة حمراء حتى صارت ذهباً! فالتقط برتقالة ليأكلها فصارت ذهباً! وذهب إلى حبة الموز ورفعها إلى فمه فصارت ذهباً! إذ ذاك ركبه ذهول وخوف مفاجئ وهو مخمور .

ونهض بعد أن رفع كل الفاكهة التي على الطاولة الذهبية بيده . لمس ما تبقى من فاكهة شهية ولعابه يسيل ، وجوعه ينعق فتحولت إلى ذهب! ورمى المائدة العامرة على الأرض وسقط فوقها وعوى كالذئاب المسعورة . وشعر بدوار في رأسه . كانت هناك أنواع شتى من الأطعمة! الديك الرومي المحشي بالبيض! الدجاج الملكي المشوي الذي أعده طباخون أتراك وعرب متفنون في الطبخ . الخروف العربي الصغير ذو اللحم الشهي المورد الذائب في الدهن والشحم! والرز المتشابك كاللآلئ البيضاء برائحته النفاذة! ها قد غزاه جيش الجوع فسطا على دجاجة محشية بالبيض ورفعها إلى فمه فإذ به يقرض ذهباً

أصفر حاداً وصلباً! فتتمزق شفتيه ويسيل دمه مع لعابه .

وبدافع الجوع كان يتصرف بتهور وينهش لحمة كبيرة من خروف محشي فتصلب في يده ذهباً! ويذهب إلى البيضة ويقشرها بيد مرتجفة فتتحول إلى ذهب! أخيراً انقض الملك ميداس على الرز الأبيض ، وملأ راحتيه ثم فمه ، فصار ذهباً على هيئة الرز وانقطع نفسه فانهمر الذهب من فمه! عاد الملك ميداس يلفظ القطع الذهبية التي غص بها! كان وحيداً في غرفته الذهبية ، بين سرير الذهب ، وطعام الذهب ، وموائد الذهب وسجاد الذهب والسقف الذهبي والكؤوس الذهبية . ولم يكن بوسعه وقد انهار من الجوع والعطش والخمر والخوف والذهب أن يصل إلى رتاجات الأبواب المغلقة ، فجلس على مقعد من ذهب وأمام الطاولة الذهبية والموائد الذهبية المليئة بالطعام . ولم يكن بوسعه سوى أو النظر إلى الطعام الشهي ، وتمنى هذه اللحظة أن تمنحه الآلهة نعمة الفقراء في التلذذ بالطعام! أدرك الملك ميداس خطيئته وقضى الليل كله منتحباً وباكياً يطلب المغفرة . وفي الصباح عندما فتح خادمه الخاص بابه كان رأس الملك ميداس يغوص في مائدة الرز الكبيرة ، وبين يديه دجاجة ذهبية!

نبتة السعادة



ظلت النبتة البرية في وعاء الفخار مستقرة في صالة المنزل . قالت زوجتي : تحتاج هذه النبتة إلى عناية كثيرة! كم أزعجتني! ما سر انزعاج زوجتي من هذه النبتة؟! كنت أتأملها . . بل أتأملهما معاً . . زوجتي مشغولة وصعبة ، وهذه النبتة تشاكسها . كانت قد أحضرت لها سماداً جديداً ثميناً . . وحاولت تعريضها للشمس كل يوم ، وأوصت الخادمة أن تواظب على سقايتها . وأن تعطيها من الماء العذب . . وحرصت الخادمة ألا تسقيها غير الماء العذب كل يوم . . كنا ننظر بازدراء إلى هذه النبتة البغيضة . . فهي تكلفنا الكثير وتعطينا القليل! قالت زوجتي وهي ترى إلى جفافها : سأرميها في الخارج . . لا نفع فيها! لِمَ نضيع وقتنا الثمين معها؟ كنا حانقين عليها ، ورغم ذلك كنا نقول : إن الحياة ستعود إليها . سترتوي وتخضر في النهاية ، مثل كل النباتات . كم من نبتة نصف صفراء صارت خضراء مورقة وسعدنا بها؟! لكن الأمد طال ، والأمل هوى ، والحيرة بدأت تضاعف اضطرابنا . كانت زوجتي لا تتحدث إلا عن هذه النبتة وكأنها النبتة الوحيدة في المنزل

المليء بالنبتات . كانت قد فكرت أن تلقيها بالأمس في القمامة ، لكنني ذكرتها أنها هدية جدتها الكبيرة بمناسبة عيد زواجنا الثامن! قالت وهي تضحك :

ـ ألم تجد أفضل من هذه الهدية؟!

فقلت :

ـ ما دامت من جدتك وجب العناية بها حتى النهاية!

نظرت إليّ في دهشة مع قليل من الاقتناع ، والتردد وقالت :

ـ لقد اعتنيت بها أكثر من اللازم!

قلت ضاحكاً :

ـ إنها تشبه جدتك في كل شيء!

ويبدو أن زوجتي اقتنعت مؤقتاً . . إذ وجدتها في اليوم الثاني تتشبك مع البستاني في حوار طويل حول النبتة ، ثم رأيت البستاني يدخل إلى صالة المنزل مع زوجتي ويتوجهان معاً إليها . أو هكذا خمنت . . كان الموضوع يثيرني لسبب غامض . . قلت لا شك أن النبتة مريضة! كان البستاني يقلب أوراقها بيده الكبيرة ثم يغمس إصبعه في التربة . . ويحرك وعاء الفخار ، ويقول لزوجتي كلاماً لا أسمعه . كنت في الطابق الثاني أتابع ما يحدث بصمت . ورأيت من ملامح زوجتي انفعالها الشديد . قالت لي زوجتي في الليل : تصور أن النبتة ستموت إذا لم نأخذها إلى خبير زراعي! ضحكت وقلت : وما رأيك؟ قالت غاضبة : أدفع لها ثمناً مضاعفاً لقيمتها؟ أعالجها؟ وأضيع وقتي الثمين؟ كانت زوجتي مديرة في مؤسسة كبيرة . . وهي إمرأة عصرية جادة لا وقت لديها للتفكير في التوافه من الأمورا قلت لها مستريحاً :

ـ افعلي ما تشائين!

نظرت إليّ بشيء من الحيرة قبل أن تقول :

ـ تعرف أن هذه النبتة تثير خيالي! وأشعر تجاهها بتعاطف غريب!

قلت أذكّرها :

ـ إنها هدية جدتك!

وكانت جدتها كلما جاءت في زيارة إلى المنزل تتوجه أولاً إلى مكان النبتة ، تمسح فخارها وأوراقها بيديها . وتقول :

ـ ما أحلاها من نبتة! اشتريتها من رجل قروي عجوز فقير على الطريق الزراعي لقرية سار . .!

كانت عينا جدتي تلمعان بالفرح وهي ترى النبتة .

قالت زوجتي :

ـ من أجل خاطر جدتي سأبقيها!

وهكذا قررت أن تبقى النبتة أياماً أخرى في المنزل . . الغريب في الأمر أن زوجتي رغم مشاغلها خرجت ذات يوم حاملة وعاء النبتة ووضعتها في مقعد السيارة الخلفي وقالت لي في عجلة :

ـ سأذهب إلى الخبير الزراعي!

عند الظهر عادت مندهشة وغاضبة لأن الخبير الزراعي أخذ منها عشرة دنانير ، وأعطاها ورقة كتب فيها اسم سماد خاص غالي الثمن ، وبعض الأدوية والمقويات والفيتامينات . . نظرت زوجتي إلى الورقة حانقة . نفخت عدة مرات . . وزفرت زفرات حارة . . قالت :

ـ هل من المعقول أن أشتري كل هذه الحاجات من أجل نبتة تافهة!؟

كنت أضحك من الأعماق لأن زوجتي انشغلت مع النبتة بطريقة مثيرة وكنت أحب مشاكستها على عادتي . وكان ليس لها حديث إلا عن النبتة .

كانت تتحدث معي عنها . . وتتحدث مع الخادمة . . ومع زميلاتها في المكتب . . بل سمعتها تتحدث عن النبتة مع صديقاتها لفترة طويلة في التليفون . . واصطدتهاذات يوم وهي تقرأ في كتاب عن النباتات . . لقد اشترت هذا الكتاب بثمن بخس! قلت : إلى أين ستنتهي حكاية هذه النبتة! إن زوجتي ستلقيها في النهاية خارج المنزل ، ولن أندهش ذات يوم عندما أعود من العمل فلا أجدها في مكانها . . وبدأت زوجتي تتوتر أكثر . . . صارت لا تطيق رؤيتها في الصالة قالت مشمئزة :

ـ هذه النبتة تشوه صالتنا الجميلة!

قلت لها :

ـ لا تنسي جدتك!

غضبت مرة أخرى . . خفت على زوجتي من هذا القلق الجديد الذي شغلها . . انشغلت أنا بدوري بزوجتي وبالنبتة . . وكانت الأحوال تسوء أكثر . . بقي من النبتة ربعها وثلاثة أرباعها كان أصفر ذابلاً جافاً . يوم الجمعة جاءت الجدة في زيارتها الأسبوعية المعتادة . . توجهت إلى النبتة في الحال ، وراحت تحيطها بيدها العجوز في رقة . . قالت كلمات مداعبة حنونة وأضافت :

ـ إنها تموت يا ابنتي! لا شك أنها لم تجد العناية اللازمة! يا للمسكينة!

راحت الجدة تمسح وجه النبتة كما تفعل مع أبنائي الصغار . وتمادت تلاعبها ، وتطري جمالها . وتحدثها كما تحدث البشر . كانت زوجتي تنظر إليها بلا مبالاة ظاهرة معتقدة أنها ثرثرة الشيخوخة المعهودة! فالناس في هذه السن يتحدثون مع أنفسهم طول الوقت! ألا تتحدث جدتها مع نفسها دائماً؟ نظرت زوجتي إلى جدتها بشيء من الضجر والعصبية وزفرت ، أما الجدة فلم



تنته من كلامها مع النبتة . . ولم ترفع يدها عن وجهها فتركتها زوجتي وهرولت غاضبة إلى المطبخ . في هذه الزيارة لم تتحدث جدتي إلا عن النبتة . . وأنها كانت بحال أفضل في المرات السابقة . . وسألتنا إن كنا نهتم بها حقاً! قالت زوجتي :

ـ لقد أعطيتها كل العناية التي تتصورين . . أعطيتها من وقتي الثمين . . وأنفقت عليها من مالي كما أنفق على أولادي . . أشتريت لها الغذاء والأسمدة والأدوية . . وسقيتها الماء الثمين العذب . . لكنها لم تتغير . . كانت الجدة تنظر إلى حفيدتها بريبة . . في اليوم الثاني ، ومن أجل الجدة المسكينة ذهبت زوجتي بورقة الخبير الزراعي واشترت أسمدة جديدة ، وأغذية ، وأدوية ، وفيتامينات من إحدى المراكز الزراعية . . كلفها ذلك عشرون ديناراً . . قالت لي بغضب وهي تحمل كيس الأدوية :

ـ لم يكلفني علاج طفلتي رحاب هذا المبلغ!

هكذا بدأت زوجتي تكره النبتة أكثر! تأتيها غاضبة متوترة كل الوقت ، خاصة وأنها تأتي من إدارتها المليئة بالمشاكل وهي متعبة . . كنت ألاحظ هذا التجهم الذي ركب وجه زوجتي منذ أصبحت مديرة . . بدأت علاقتنا تسوء . . كنا نتشاجر كثيراً لأتفه الأسباب لأنها أصبحت عصبية ، معي ، ومع الأولاد . . كانت معتادة على إعطاء الأوامر في العمل ، وكانت تنسى نفسها معي في المنزل فتزجرني أو تأمرني! أو تصرخ في وجهي! يا اللّه! . . كنت أغضب بدوري . . وبلغ الأمر أن كنا بعض الأحيان نصل إلى القطيعة أما حكاية النبتة فزادتها توتراً . . الأولاد أيضاً كانوا في شجار ، وسرى القلق والتوتر وسادت العصبية المنزل! قالت زوجتي :

ـ هذه النبتة شؤم! لقد تلاشت السعادة منذ أن حضرت إلى المنزل!

بالفعل! كانت ملاحظة زوجتي دقيقة ، فقد تصاعدت الشجارات بيننا مع دخول النبتة المنزل! وكانت تقنعني مرة أخرى بالخلاص منها! بدأت زوجتي تخاف من النبتة أكثر وتتشاءم منها! وقالت لي بعد أن أعطتها كل الأدوية والأغذية من دون أن تتغير ، إنها نبتة شيطانية! كانت تحسم قرارها بشدة . . وركضت ذات ليلة ، بعد شجار طويل بيني وبينها إلى الصالة لتقتلع النبتة وتلقيها . . لكنني لسبب لا أعرفه ذهبت أسبقها إلى مكان النبتة . . ومنعتها من ذلك بحدة . كنت أفكر في الطلاق بالفعل ، ووصلت زوجتي إلى حد البكاء! وبدأ خلافنا هذه المرة يصبح رئيسياً وحاداً على النبتة! قلت لها : حاذري أن تلمسيها بيدك! وإلا قتلتك! نظرت إلي بدهشة وقالت :

ـ هل دخلك سحر النبتة؟ هل تفضلها عليّ؟! أقسم أن أعداءاً لنا عملوا سحراً!

قلت ضاحكاً :

ـ أسفاً على شهاداتك العلمية!

كنت غاضباً . . وكنت ذات يوم جالساً في البلكونة . كان شيخ هندي طاعن في السن من جماعة السيخ يتعمم بعمامة حمراء وينحني على الزرع في حديقة جيراننا المكشوفة . . لست أدري لِمَ بدرت لي تلك الفكرة وأنا أنظر إلى لحية الشيخ البيضاء ، وعينه الهادئة المرحة؟ قلت : هذا الشيخ قد يعرف السر فمن الهند خرج السحر إلى العالم . . وعرفوا أشد الألغاز غموضاً . . ناديت الشيخ . . وتقدمته إلى المنزل . . دخلنا من الباب الخلفي ، وتقدمنا جهة النبتة . . كانت صفراء في الغالب . . ولم يبق منها إلا اخضراراً صغيراً لا يكاد يرى . . بعد أن تلمسها الشيخ الهندي بشيء من

الحب والمرارة . . وكانت أصابعه لم تزل متربة . . قال لي :

ـ يا ابني . . هذا النبتة تشبه الانسان في طبعها . . ونحن نسميها نبتة السعادة . . لأنها لا تعيش إلا في المنازل السعيدة . . هذه النبتة تتأثر بجو المنزل . . وهي تحتاج إلى الحب أكثر من حاجتها إلى الماء . . وإلى الابتسامة أكثر من حاجتها إلى الغذاء . . إن موت هذه النبتة الوشيك ينبئ عن تعاسة أهل المنزل! . لا تآخذني يا ابني . .!

ـ ورقت عيناه محرجة ـ هذه هي الحقيقة . . هل أنتم سعداء؟ لو كنتم كذلك لما مرضت هذه النبتة! .

واستدار الشيخ الهندي ليخرج . . كنت أفكر بما قاله لي وأنا في دهشة من اكتشافه لحقيقتنا بهذه السهولة! . . لقد عرف وهو الغريب ما يحدث في بيت مقلق! فهو إذن يعرف سر النبتة أيضاً! كنت أفكر الآن في سعادتنا المتداعية قبل أن أفكر في النبتة . . بدأت بعد أيام أقنع زوجتي بتغيير وظيفتها أو تغيير سلوكها في المنزل . بدأت زوجتي تقتنع . . وكأنها تكتشف ذلك لأول مرة! قالت لي : لقد سمعت عن مثل هذه الأمور . . لكني لا أصدقها! سمعت عن النباتات التي تنمو مع الموسيقى أكثر . . كما سمعت عن البقر الذي يدر الحليب أكثر مع الموسيقى . . والأفاعي التي ترقص مع الناي . . وها أنا أسمع أعجوبة أخرى . . هل يمكن ذلك؟ قلت لها : لن نخسر لو جربنا فهذه حقائق علمية! ثم إن تغيير سلوكنا إلى الأفضل سيعود علينا بالمنفعة بغض النظر عن النبتة! اقتنعت وابتسمت في الحال . . . وذهبت تقترب من النبتة بحنان وحب عظيمين ، فقد أيقظتها هذه النبتة إلى أخطائها . . وأنقذت حياتها بالكامل! كنت أنا بدوري أذهب إلى النبتة بحب وعطف . . وأمسح وجهها الجاف الخشن . . وأحدثها كما أحدث

أولادي . . وبدأ الأولاد يقلدوننا فـالأطفـال أوسع خـيـالاً وأشـد تعلقـاً بالنبات . . كانوا يقضون وقتا طويلاً قرب النبتة ، يلعبون معها طوال الوقت . . ويضعون غذاءهم أمامها قائلين : كُلي يا صديقتي! اشربي يا صديقتي! . . كانت زوجتي تروح وتجيء مبتسمة حول النبتة . . صارت بفضلها أكثر هدوءاً معي . . وبادلتـهـا الـسلوك . . وبدأنا نـسـترجع مـا فـقـدناه من قـوة الروابط العاطفية ، وأصبحت لنا ليالي من الحب العظيم ذكرنا بشهر العسل . . ارتوت زوجـتي بالحب . . . وراحت تحـدث النبـتـة طول الوقت . . كنا نذهـب من البيت قائلين لها :

ـ ستوحشيـنـا يا ابنـتي!

ونعود فنقول لها :

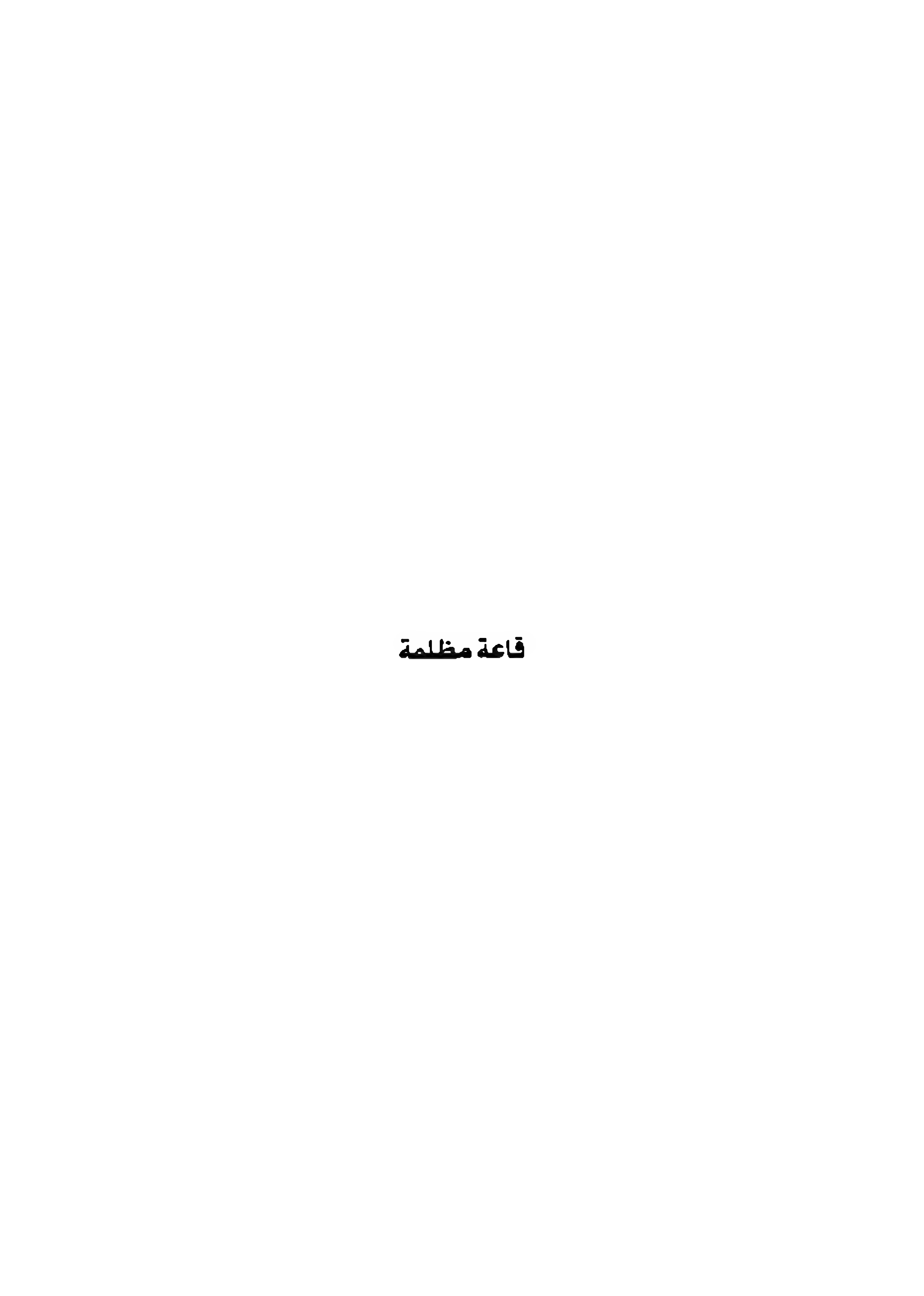
ـ مساء الخير يا فتاتي!

ورفـرفت الـسـعادة طول الوقت في المنزل . . بعـد أيام قليلة بدأت النبـتـة ترتفع مـسافة بوصة ، وكـأنها تطل برأسـهـا علينا مرحة . . وتصلبت بعض أوراقها . . واخضرت ، بعد أيام أخرى بدأ الاصفرار يتلاشى تدريجياً ، كنا مع الدهشـة العظيـمـة جميعاً وغير مصدقين نضاعف الحب والحنان والرعاية لها . . وبدت استجابتها الـسـريعة تثير فينا رغبة الحب أكثر . . كما أن جو الـسـعادة في المنزل الذي حدث بـسـببها أضفى عليها هالة من المرح . . فكانـت تصدر أصواتاً في الصباح كالموسـيقى . .

ـ إنها تـسـتجيب لنا بالفعل!

قالت زوجـتي في سعادة وتقدمت نحوها وقبلتها في خدها فضحكت النبـتـة ، وسار الأولاد فذهبوا وقبلوها بدورهم . . كنا نقبـلها في كل دخول وخروج بعد ذلك . وكانت ترقص أغصانها الطويلة عند دخولنا وخروجنا ،

وتهتز اهتزازاً عفوياً مرحاً وتنطق وتضحك وتكركر وتقول : أهلاً بكم في المنزل السعيد! . . واشترت لها زوجتي حوضاً ذهبياً كبيراً . . وانتظرنا زيارة الجدة هذه المرة بفارغ الصبر .



قاعة مظلمة

كان الأمر يدعو للارتباك ، فالأضواء في القاعة انطفأت فجأة ، وساد ظلام هائل ، وارتفعت صيحات النساء من الخوف ، واضطرب الرجال ، وحاول كل منهم حماية زوجته من الحمقى والسكارى والمغامرين ، لكن أين يجد كل رجل زوجته؟ لقد حدث هرج ومرج ، ومن خوف الرجال على زوجاتهم راحوا يقبضون أكتاف النساء الأخريات ، وازدادت الجلبة ، فالأكتاف الملموسة العارية كانت للغير! وهكذا زعقت المرأة والأخرى فهن يعرفن بالغريزة والحدس روائح الأزواج وعطورهم ، وحجم أيديهم التي جاست وتنعمت بأجسادهن سنين . إذاك ازدادت صيحات الاستغاثة يا أبا حسن . . يا زوجي! . . يا راشد! كل امرأة كانت تنادي زوجها . . ومن يعلم ربما كان الزوج هو الذي طوقها للحماية لكنه الخوف واضطراب النساء المفاجئ واختلاط المخيلة . . الفرقة توقفت عن العزف في المكان المرتفع من المسرح المخصص لها . والرقص توقف أثر ذلك . . وتناهبت الحاضرين المخاوف الخطيرة فقد تحدث اغتصابات في الظلام . في الظلام لا شيء يظهر . لا شيء يُعرف ، لا

شيء يستقر ، لا أحد يشعر بالأمان . . كانوا يبحثون عن الضوء . . مكان الضوء . . النقطة التي توقف مصيرهم جميعاً عليها . ولأنهم ليسوا من أهل المكان فقد كان من الصعب معرفة مركز الضوء . . والطريقة التي يستطيعون بها إعادة الضوء . . الأبواب أيضاً ، أبواب القاعة كانت مقفلة ، وفي الفوضى العامة سقطت المفاتيح كلها من يد ضابط القاعة . . القاعة الكبيرة التي كانت مبتهجة عندما كان الضوء كاسحاً في القاعة الراقصة السعيدة . . كنت تسمع أصواتاً غاضبة ، وخائفة ، ومهددة في وقت واحد . . أصوات كلها ، كلها تذهب هباء لأن لا أحد يستجيب لا أحد يعرف ، لا أحد يرى . . وكانت معظم الأصوات المستنجدة نسائية . . يا كلب! . . يا خسيس! . . يا حيوان! يا لص! . . يا . . أصوات نسائية فقدت رونقها وأنوثتها ومسحاتها السحرية ، أصوات خائفة تليها جلبة وحركة ، يعقبها سقوط أشخاص على أشخاص . وكؤوس على كؤوس ، ومقاعد علي أشخاص ، والعكس . . العكس هو القاعدة الآن ، والصحيح كان الضوء الذي ينظم الحفل ، ينظم حركة الراقصين ، يبعث العازفين على العزف ، ويسعد المغنين بالغناء ، ويلتهم معه الآكلون الأطباق الشهية في لذة ويجترع الجميع الكؤوس المسكرة ، ويدوخون بأفكار مشعة . . في الضوء . . الضوء المشعشع يسود النظام ، والأمان ، والحب ، والحيوية ، وترتفع ضحكات جميلة ، وهمسات ، وتتضوع قبلات ، وتسري روائح . . الروائح العطرة اختفت مع الخوف . . وظلت في القاعة روائح العرق والشبق والجنس . . من الصيحات المذعورة الخجولة ظهرت جرائم اغتصاب . . فساتين مزقت . تأوهات . . أعناق اخترقتها أيدي . عقود من الماس والذهب سحبت من الأعناق ، الحقائب النسائية اختفت . . كنت تسمع الجلبة بشكل فوضوي

هائل . . وكانت الأجساد الهاربة المغتصبة تبتعد ، والأجساد السارقة تبتعد عن مكان الجريمة فتصطدم بأجساد أخرى . . سمعت أيضاً صرخات مؤلمة . . بكاء مهيناً . . سالت دماء أيضاً فوق سطح القاعة . . . كانت هناك أبكار . وكان الخمر يلعب بالرؤوس والنفوس . وكانت الحقائب تسحب بسرعة . . وسمعت أصواتاً مستنجدة تردد الصوت نفسه ، والكلمة ذاتها .

ـ الضوء! الضوء! الضوء!

وأصوات أخرى :

ـ الأبواب! افتحوا الأبواب!

هل كانت خطة جهنمية مدبرة؟ لِمَ الأبواب مغلقة مع الأضواء؟ لِمَ ضاعت المفاتيح؟ أين ضباط أمن القاعة؟ ماذا يفعلون؟ كان الراقصون السعداء قبل قليل يستنجدون بضباط القاعة . .

ـ أيها الضباط! أيها . . . أي . . .

لكن لا إجابة . لا صوت يرد . . . وتغيب الأصوات وسط صيحات الهلع ، والانتهاكات الجمة ، والسرقات المتكررة . . .

ـ أين الأبواب؟

لقد أضاعوا كل شيء . . وضربوا الجدران . وعادوا يبحثون عن بعضهم البعض . النساء تساقطن على الأرض من الجهد والذعر والمفاجأة . . حدث دهس كثير . . حدثت وفيات لا أحد يعرفها . . كانوا يبحثون عن بعض في كل القاعة . . علي . . أحمد . . هيفاء . . فاتن . . بهاء . . ليلى . . أين أنت! أنت! والأصوات ذاتها تتكرر . . الأصوات التي كانت مفقودة راحت هي بدورها تصوت وتبحث . . الجلبة زادت . . . والظلام خيم ، والكؤوس والزجاجات تساقطت فوق الأرض . . كان ثمة أطفال في القاعة دهسوا في

الوهلة الأولى . . بعد دقائق توقفت أصواتهم عن الاستجاد . . ومع صيحات النساء المستنجدة تلاحم الرجال . . لكمات استقبلتها لكمات أخرى .

الأبرياء ضاعوا في هذا الظلام ، وراحو يكيلون الضرب للأبرياء . . تحولوا جميعاً إلى وحوش ضارية . . الوحوش الأولى تحركت بدافع السرقة والاغتصاب ، الوحوش التالية تحركت بدافع الدفاع عن النفس . . لم تكن الأمور واضحة . . كانوا يخبطون بعض . . الزوج يخبط زوجته ، والأخ يلكم أخته . . والأب يطحن طفله في الأرض . . والأخت تركل أختها . . عمت فوضى مميتة . . وحدثت جلبة متصاعدة . وتفجرت دماء مرة مالحة . . وعربدت أصوات ماجنة من اللذة والفجور . . . وكانت الأصوات لا تتقف . . أصوات الحائرين والأبرياء والطيبين . .

ـ الضوء! الضوء!

ـ لم يأت الضوء . .

كانت الأصوات المجهولة تتردد وتضيع وسط ضجيج الزجاج المتكسر ، والزعيق المطلق . .

ـ هل توقف الضوء من الخارج؟

ـ لا ندري . .

ـ أصلحوا الضوء؟

ـ لا أحد يستطيع أن يصل إلى مكان الخلل . .

ـ الظلام يخفي المكان . .

وإن وصلوا كيف يصلحون العطب؟

ـ من المهم أن نعرف مكان الخلل؟

هل هو الخط العام في المنطقة؟ مكان التوليد الرئيسي؟ أسلاك القاعة . .؟


EXIT

لا أحد يعرف . . لا أحد يسأل . لا أحد يستطيع أن يسعي . . الأمر استمر ساعات طويلة . . ساعات أطول مما يتصورون . كانوا يعتقدون أنها لم تكن إلا ثوان قليلة . . لكن الظلام طال . . وبدأت الأبدان المجهدة المنهارة تخور وتنهار . . وسمعت أصوات تساقطها على الأرض . . على الأرض المليئة بالجثث ، والزجاج الحاد ، وأنصاف القوارير . . والدماء . . خارت الأجساد فوق الأجساد . أغمي على النساء . . تهالك الرجال ، كانت الأصوات تخبو . . تخفت . . والأنفاس تهبط ، وبدا أن كل شيء ، كل مخلوق قد مات أو نام!


فوبيا

[لا ينظر إلي حتى لا أكشف أمره! يعلم أنني أراقبه بدوري . عندما أسهو مع كوب الشاي والأوراق التي أمامي ستهبط الجريدة من يده كالستارة ، ويظهر مشهدي أمامه واضحاً] . [المراقبة متبادلة!] . تنقلت عيناه بين الأوراق التي أمامه والرجل القابع على الكرسي في مواجهته . لم يرفع الرجل رأسه عن الجريدة وذلك أدهشه . [لم يأت كل يوم وفي نفس الموعد؟ بالتأكيد يعرف أنني أصل هنا في الثامنة صباحاً!] . راح يفكر في الأمر من جديد . [قد تكون الصدفة]؟ . لم يتقبل الفكرة في الوهلة الأولى ، فالصدفة لا تتكرر كل يوم؟ في نفس الوقت؟ مقابل المقعد الذي يجلس عليه؟ [العادة لا تفسر] [إنها عادة!] . ابتسم لهذا الخاطر فانهار الخوف الذي التهمه منذ دخوله الكازينو . فكّر في الرجل الذي ينتظره خارج الكازينو ، على الرصيف . تبعه منذ خروجه من العمارة . يراه من النافذة الزجاجية العريضة يروح ويجيء بانتظام . [إن الرجل مبرمج] . إنهم كالمرض الذي يسبق الموت . كان أخوه تحت المراقبة . فكّر في المداهمة التي قد تحدث له في الليل وهو نائم . يقتل

في شقته الصغيرة ، في العمارة المنعزلة . في الطابق الثالث . في الزقاق المهمل . لسبب مجهول تذكر أكياس القمامة السوداء الكثيرة أمام باب العمارة . جثته ستوضع في كيس أسود . لن تصل استغاثته إلى الجيران الذين يغلقون أبوابهم في المساء .

فكر في الوحدة التي تتبعه في كل مكان . في الرجل الذي يجلس على الدكّة طول الوقت ، أمام بوابة العمارة . يرفع الرجل التليفون النقال ويتحدث ما أن يراه . عندما يدخل هو العمارة يذهب الرجل إلى البقالة المجاورة التي يعمل فيها . أحياناً يتبعه ويضغط زر الطابق الرابع الذي يسكن فيه . يرتدي نظارة سوداء كبيرة . ـ لم ير عينه قط ـ وقميصاً أسود . وحذاء أسود . له يد ضخمة نافرة العروق . تخيله وهو يضربه ضربات عنيفة . تذكر موظف الكهرباء الذي يضغط جرس الشقة كل يوم وآخر . [ماذا يسجل كل هذا الوقت؟ والنقال في يده؟ وعيناه تتجول في الصالة والغرف؟] . جاءه النادل واقترب منه . [أي خدمة؟] ناظره بفضول قبل أن يجيب . كاد يقول للنادل : [إذا أردت] شيئاً سأطالبك ، لكنه ـ أمام نظراته الفاحصة ـ ارتاب ، وقال : [أشكرك جداً!] . نسي الرجل الذي يجلس أمامه ويقرأ الجريدة ودهش لأنه نساه . تذكر في الحال الرجل الذي ينتظره على الرصيف وصاحب البقالة التي أمام العمارة .

كان النادل ينظف الطاولة التي خلف ظهره ، قال : [لا بد أنه ينظر في الأوراق؟ رغم أنها معاملات تجارية . سيظن أنها أوراق خطيرة . في كل الأحوال الأوراق تخيفهم أكثر من المسدسات . هل الأوراق تقتل؟] . شعر بحرج وتوتر عندما أطال النادل الوقوف خلف ظهره . شعر وكأنه يركب على كتفه . كان يرتدي قميصاً مارونياً داكناً مثل دم قديم جاف . وله صلعة



مخيفة . لوهلة تطلع إلى الرجل الذي يقرأ الجريدة وشعر بالأسر والخوف . تذكر الرجل الذي أمام العمارة . كان يسمع همسات أوراق الجريدة والرجل يطويها في يده . قرأ في الجريدة التي تواجهه هذا العنوان بالخط الأحمر : [القبض على جماعة مخربة] [لماذا الكتابة كبيرة والعناوين حمراء؟] شعر بالخوف الشديد [إن يد الحكومة الحديدية ضخمة] . كانت جثة أخيه مثقوبة من الظهر والبطن ، وفي العنق . لم تبارحه صورة الجثة البيضاء الملفوفة في قماش ، ولا التقرير الذي تسلمه . [في الأوراق توجد أشياء خطيرة] . بدأت مراقبته هو منذ تسلمه الجثة . كانوا يتبعونه في كل مكان . المراقبة اشتدت مع الوقت . هناك من يدخل شقته في غيابه . كان ينظر إلى السقف في غرفة نومه . يضع سلماً ويفتش سقوف الشقة الصغيرة وزواياها . كانت العناكب تفزع منه بدورها . [يدفنون المسجلات كالفخاخ في كل مكان . أحياناً تكون بحجم علبة الكبريت أو الخاتم] . سمع حكايات كثيرة مشابهة . عندما يكون مع أصدقائه في الشقة يطلب منهم الخروج إلى الشارع . يخطو إلى الخارج ويقول : [نذهب إلى الهواء الطلق!] . فهموا حالته وهو يتطلع إلى السقف . يتخيل وهو نائم في الليل مداهمة عاجلة . في الصباح يطل من نافذته التي على الشارع ، يرى رجل البقالة عند الباب يدخن والنقال في يده . تقفل البقالة في الثالثة صباحاً . [لم يلبس نظارة سوداء في الليل؟] . يحرك الستارة التي يحرص علي فتحها قليلاً ، ويطل على الشارع . يتخيل جثته وهو على سرير متحرك في المستشفى ، وتقرير أبيض فوقها . . [سكتة قلبية] [الأمر هين جداً] . كان النادل يغني أغنية شعبية ولاحظ أن صوته رخو وشواربه كبيرة . أصغى إلى صوته ولاحظ امتلاء منفظته بالسجائر . رشف الشاي ، وأشعل سيجارة جديدة . كانت هي الأخيرة فطلب علبة

أخرى . قال له النادل :

ـ التدخين يضر بالصحة! لا شك إن لديك ما يشغلك؟

نظر إليه ، ودفعه الخوف لأن يقول :

ـ ليس لدي ما أفكر فيه .

[من المفترض أن يكون جميع سكان هذه المدينة سعداء . ومن يحزن فهو خطر]

رغم ذلك ، كان النادل يقف بثبات أمامه ويقول :

ـ أربع علب في اليوم كثيرة؟

ـ كيف عرفت إنني أدخن أربع علب؟

[يعد السجائر التي أدخنها؟]

أربكته الفكرة . [أعرف أنه يظن أنني أفكر في مسألة محددة تشغله هو بدوره] .

[كان علي أن أكون في حالة أفضل . كلما فزعت ظنوا أنني أخفي سراً بالفعل . يظنون أنني أدبر شيئاً] . تخيل جثته في كيس أسود مربوط [لا بد أنهم يفكرون في الخلاص مني!] اعتراه خوف شديد . أن فكرة مداهمته وقتله أكيدة . لن يستطيع تغيير شيئاً . أو التأثير في شيء . [لست أكثر من سلحفاة] .

النادل يستفزه لكي يتكلم . يثيره لكي يقول ، بذلك يعرفون حقيقته بالضبط . توقف عن الشراب منذ مدة ، ولم يرتد الملاهي منذ شهور بعد أن تسلم جثة أخيه في غرفة يتحرك فيها الضابط والجنود . بعد ذلك زار العيادة النفسية . كان لا بد أن يصمت . في نفس الوقت ـ وهو في خوفه العنيف ـ أراد أن يؤكد للنادل براءاته . كاد يقول له : [أنت تعرف كل شيء!] لكنه

استدرك في اللحظة الأخيرة . تهيأت له جثة أخيه ، ووجهه الذي امتلأ بكدمات دموية حمراء ، وأصابعه المبتورة . [إن الكتابة بترت أصابع أخي . المداهمة وشيكة] . شعر بفخامة النادل وقوته بدا له عملاقاً . كان يعلك لباناً . وتظهر أسنانه العريضة . كاد يقول له : [أنني بريء] .

سمع صوته من بعيد :

ـ سأحضر السجائر!

لاحظ أن النادل يطل في الأوراق التي أمامه ، لِمَ يخاف؟ من خوفهم منه؟ [خوف متبادل] . تذكر وقع خطوات الأحذية العسكرية الضخمة . يشبه الحذاء العسكري الخوذة . وتشبه الخوذة القنبلة وتشبه القنبلة رأس الأفعى . دهش من هذه الخيالات الغريبة وسمع النادل يقول :

ـ هل تعمل في التجارة؟

ـ نعم . . .

كاد يسأله : [لماذا تسأل؟] لكنه عدل عن رأيه .

كان الرجل الذي يقرأ الجريدة يراقبهما معاً . ويبدو أنه قد ترك الجريدة جانباً . وواجهه ونظر إليه ، ثم هربت نظراته إلى الشارع . حان موعد نومه . سيذهب إلى شقته الصغيرة وفي انتظاره عند البوابة الرجل ذو القميص الأسود [لم هذا اللون المخيف؟] . كان يفكر فيه ، ويفكر في النادل . ويعود لينظر إلى الرجل الذي يقرأ الجريدة . واجهه عنوان آخر فتسلى بقراءاته : [إلقاء القبض على عصابة من اللصوص] . لاحظ أن النادل يراقبه وهو ينظر إلى الجريدة . قال النادل وهو يناوله السجائر :

ـ ألا تحب قراءة الجرائد؟

كاد يقول له [هل كنت تراقبني؟] ، ظلت الجملة حبيسة صدره . كان

يناوله علبة السجائر .

ـ بالفعل أنا لا أقرء الجرائد!

ـ ألا تعجبك؟

قال أنه يستفزه لكي يظهر كرهه للجرائد .

كان أخوه يكره هذه الجرائد بدوره ويقول إنها قمامة .

ـ أنا لا أقرأ إطلاقا!

كان يشتري الجريدة وهو يلتفت من مكتبة [النور] البعيدة عن منزله ويضعها داخل حقيبة السامسونايت ، ولا يخرجها إلا في الشقة . وبعد أن يستلقي على السرير وينظر إلى السقف والزوايا ويفتش أسفل السرير وينهض ليكشف الشارع من خلال النافذة ينغمس في الجريدة حتى ينام . سلم مبلغاً من المال للنادل ونهض . أشعل سيجارة وهو يخرج من المقهى الزجاجي . كان ينتظره على الطوار المواجه للكازينو رجل يرتدي قميصاً أصفر وحذاء رياضياً وهو أصلع بالكامل ، ويضع نظارة سوداء ضخمة . له شفتان كبيرتان ويعلك لباناً ويداه حول كتفيه ، وهو على هيئة الانتظار . الرجل في انتظاره . تابعه قبل دخوله الكازينو ، حين كان يسير في شارع طويل كثير السابلة . كان قد خلف العمارة . وظل يتبعه حتى دخل الكازينو . عندما توقف على الرصيف ظل هو يلقى طرفاً من عينيه إليه وهو يراقب الرجل الذي يقرأ الجريدة بالعين الأخرى فيما كان يفكر في النادل . حين داهمه النادل انتفض :

ـ أي خدمة؟

كانوا يتشابهون تماماً : وجوه عريضة كالجواشن . أفواه دقيقة واسعة لزجة . وعيون ضيقة . وكف ضخمة . عندما خطى على الرصيف كان الرجل

يتبعه . وعند العمارة اختفى فجأة وظهر الرجل ذو القميص الأسود بنصف جسده من البقالة وعدل نظارته السوداء واستدار . عندما وصل إلى شقته وأغلق الباب ، ولبس منامته سمع رنين الجرس . فتح باب الشقة ودخل موظف الكهرباء وفتح صندوق العداد وراح ينظر في زوايا الشقة . لاحظ وجهه العريض وفمه الواسع كالأخدود وعينيه النائمتين [قد يضع قنبلة في الصندوق!] . وحين ابتسم له سال خيط لعاب لزج . شعر بغثيان . وذهب إلى غرفة نومه ، وفتح الجريدة . كان قارئ العداد قد ذهب . في الصفحة الأولى من الجريدة قرأ هذا العنوان باللون الأحمر العريض [سنضرب بيد من حديد] . ابتسم . رأى أمامه يد حديدية ضخمة بحجم عمارة تهرسه ، مثل آلة فرم اللحم . وانتشر في بدنه خوف هائل . تضاعف [الرهاب] في تجاويفه البعيدة ، وسجن جسده ، وغمره عرق كثيف . كانت اليد الحديدية الضخمة والأحذية السوداء العسكرية التي على هيئة مجنزرات تطارده . ثم اتسعت اليد الحديدية وتورمت الأحذية . اتصل بطبيبه النفسي . كان تلفون العيادة يرن . ظل يرن فترة طويلة . أحس بالغثيان والخوف وتقيأ على السرير والجريدة التي تحته . اختفت العناوين الكبيرة الحمراء . حمل الجريدة القذرة ورماها في صندوق القمامة وقال : [لو جاءوا الليلة ورأوها في صندوق القمامة سيظنون أنني أكره الجريدة!] واهتدى إلى فكرتين : أن يحرق الجريدة أو يقطعها إلى قطع صغيرة ويلقيها في الحمام يجرفها ماء السيفون إلى المجاري تحت الأرض . لكن الدخان الخارج من شقته سيزيد من شكوكهم . سيعطيهم الدليل القاطع على أنه كان يخفي أوراقاً سرية خطيرة . بدأ بتقطيع الصفحات الأولى من الجريدة بعد أن أغلق باب الشقة وباب الحجرة وباب الحمام . جرف ماء السيفون المندفع الأوراق الصغيرة . استراح . كان يسمع

صوت السيفون وانطلاق الماء بلذة ، وتنتابه طمأنينة مضاعفة . وشعر وكأنه يتخلص من كل آلامه .



عندما توقف المصعد

توقف المصعد بعد الطابق الثالث مباشرة . رآه وهو يسحب بدنه الثقيل كزحافة عريضة ، ويتسلق الجدران بهدوء ، ثم يتوقف عن الحركة . ويهمد . في لحظة ، لحظة لم يكترث لها ، لم يتصورها ، لم يحسب لها حساباً وجد نفسه في موقف حرج . . كيف حدث ذلك؟ . . لم هذه الساعة وهو ذاهب الآن لتوقيع طلب شراء مصاعد جديدة؟! وجد نفسه وسط مساحة صغيرة . . تابوت . . هذا المصعد تابوت من حديد ، صلب ، ولا منفذ للهواء . . هل فكر في ذلك من قبل؟ . . في مخاطر المصاعد؟ في أنه سيموت في مصعد جلبه من بلاد بعيدة؟ . . من دون أن يعي ضرب الجرس . . لم يسمع حركة في الخارج . . أعلى رأسه . كان المصعد قد توقف بين الدور الثالث والرابع . . . رأى الجدار صامتاً . لو تحرك المصعد قليلاً لكان هو الآن تحت المكيف يرشف الشاي ، ويدخن ويداعب سكرتيرته الجميلة . . ضغط الجرس أيضاً! لا أحد! . . قد يكون مقطوعاً! . . لا أحد يسمع! . . إذن!!! «ماذا أفعل؟»» دق الباب . . ظهر المصعد ، جانبه! . . دم! . . دم . . دم! . . بقوة أكثر فالصوت لم

يكن له صدى . . دم دم! . . دم دم! . . دم دم دم سريعة! . . هادرة . كان يوم ١٥ من شهر أغسطس ١٩٨٩ والرطوبة عالية . . ورأى أن عرقاً ، وماءً غزيراً يجري تحت ثوبه ، فوق صدره ، جبهته ، رقبته ، بين شعر رأسه . وأخيراً . . هبط ماء من ظهره وساقه! . . اختلط الآن الخوف والحر . . فارتفعت من الخوف درجة حرارة جسمه . . مع ارتفاع درجة الحرارة ازداد انهمار العرق . . التصق ثوبه بجسمه . . وضع «السامسونايت» تحت قدمه . . خبط باليدين . كان قد سمن كثيراً (يحب الأكلات الدسمة والسفر والنساء) . ضرب المصعد لكن لم يتحرك . . هذا المخلوق الصامت يجب أن يتحرك . . ماذا يحدث؟! . . ضرب . . بكفه العريضة ضرب . . بقوة أكبر . الجرس ثانية . . ثانية بطن المصعد . . تنقلت يده بين بطن المصعد الحديدي والجرس . . وعينه أيضاً تنقلت هنا . . هناك . . الحرارة تشتد . . الخوف يشتد . . لا أحد . . لا أحد! . . يصرخ؟ . . ينادي؟ . . . لا أحد! . . إذن؟ . . . رفع عقيرته . . نادى أسماء كثيرة . . ضغط الجرس . . ضرب . . نادى . . . لا أحد . لا أحد . . . نادى . . نادى أيضاً بصوت شديد الارتفاع ، جهير . . محمود . . سالم . . إبراهيم . . جميع موظفيه في الطابق الرابع . . نفس الموظفين الذين كان يرفع صوته في وجوههم . كانوا يزعلون بطرق مختلفة . . محمود . . سالم . . إبراهيم . . لكن الآن . . لا أحد . . لا أحد يسمع . . أو يزعل . . مرة أخرى . . جهر بصوته . . ازداد خوفه ولا أحد . . لا أحد يسرع إلى نجدته! . . خاف أكثر ، عرق أكثر! . . ثم وجد نفسه يفعل من دون أن يفكر ، يتصرف من دون أن يرتب أفكاره . . خلع عقاله . . غترته . .مسح وجهه بغترته . . رقبته . . صدره . . ماء! . . عصر غترته . . كلها ماء . ماء . . رفع ثوبه . . ضرب المصعد . . رفس . . ضرب الجرس . . ثم أيضاً جهر



بصوته . . هذه المرة كان صوته فيه رجاء . . رجاء حار . . محمو . . . .
سالم . . . . . وكان بحذاء وجورب ، وفانلة داخلية ، وشورت داخلي . .
وبطيناً للغاية (كان يحب الرز مع اللحم والشحم ويأكل بشراهة ويشرب
بشراهة) . دهش عندما لاحظ بلل الماء أسفل قدمه . . تحت حذائه الصقيل
الأسود (لا يخرج من البيت إلا بعد أن تلمع الخادمة حذاءه للمرة الأخيرة)
كم مضى من الوقت؟! . . هل يموت؟! غلبته فكرة الموت . . فضرب بقوة بكلتا
يديه . . رفس . . انهمر العرق وغطّى جفنه . خلع حذاءه ، جوربه ، ازدادت
الحرارة بالداخل ، حرارة جسده تضاعف خوفه وتوتره ، وحرارة المصعد
الحديدي ، الجدار المواجه له . . هل يموت؟ . . هل تكتب له حياة ثانية؟ . .
لم فكر في استيراد المصاعد؟ لأول مرة رآه قبراً متحركاً . . جامد الملامح ،
قاسي التقاطيع . . لن يركب مصعداً مرة أخرى! . . لكن هل يخرج؟! . . كان
يفكر بارتباك واضطراب ، ومن دون انتظام . جمع ثروة هائلة في سنين قليلة
ولم يستمتع وعندما اكتشف لذة الحياة تواً خنقه المصعد! آه . . . يجب أن
يخرج . . يحطم هذا القبر المصقول . رأى وجهه هناك وخلف ضباب الالمونيوم
المصقول مشوهاً ، غير واضح ، ضائعاً ، مذعوراً ، موزعاً . . «هل هذا وجهه؟» .
كان ينظر إلى وجهه ويرتعب . يعود للضغط على الجرس ، ثم يتحفز ، ويرتمي
بجسده الثقيل على المصعد يريد تحطيمه . . يجب ألا يموت . . لم اختار تجارة
المصاعد؟ . . الحياة حلوة! . أحلى مما تصور . . آه . . كان جسده الثقيل يهز
المصعد ، وكان يأمل أن تفعل هذه الهزات فعلها ، أن يسمع حركة ، وضجة ،
مفاجئة ، لكن أي شيء من ذلك لم يحدث . يسود صمت ، يتدرج
صمت . .! . . . ثم يعود يخبط . . بكتفه ، بكتفه الآخر! . . بجثته كلها!
بصوته كله يجهر! . . يجهر! الخوف . . خلع فانلته . . ظل واقفاً الآن بشورته

الداخلي ، كرشه الكبير المغطى بالشعر يتجول في المصعد ، العرق ينفلت ويغطي جسده ويشكل بقعة رطبة تحت قدمه . . ، لا جدوى . . عليه إذن أن يرفع عقيرته! . . الأوكسجين ينفد! . . ينفد! شعر بالاختناق . ظن أن الأوكسجين فعلاً نفد! . زاد العرق . . زاد الحر . . زاد الخوف . . زاد الضرب في بطن المصعد . . والجرس . . ضغط الجرس . . إذن . . فكر في الموت . ونادى محمود . . سالم . . إبراهيم . . ومن دون أن يتوقع سمع حركة بالفعل . جلبة بالفعل . أصوات بشرية بالفعل . محمود . . سالم . . إبراهيم . أعاد . . أعاد . . أعاد . . والحركة تزيد ، الجلبة تزيد ، الأصوات تقترب . . الخطوات فوق رأسه . . فوق رأسه تماماً . . من جهة المكاتب التي يديرها . . شعر ببرودة في جسده . . تنفس . . كان نفسه ثقيلاً ، وكان وجهه مفتوحاً وعيناه ، وأنفه ، وفمه . . هواء . . يريد الهواء . . وجلبة أخرى . . وصوت محمود :

ـ طال عمرك انتظر!

آه! . . كيف ينتظر! . . منذ متى وهو ينتظر!

ـ بسرعة يا محمود . .!

ـ سلامتك طال عمرك!!

ـ باموت! . . باموت!!

ـ دقيقة طال عمرك!!

ـ أرجوك!

ـ حاضر طال عمرك!

هل سيطول عمره؟! وبالفعل بالفعل . . بالفعل . . تحرك المصعد الميت الهامد . . ـ ومن دون أن يصدق ـ وهو يتحرك . . بهدوء أولاً . . ثم بهدوء ،

ثم بسرعة أكثر . . ثم يستقر ، يقف ، ويتمهل! . . ثم ينفتح الباب على مصراعيه . . ثم . . تهب نسمات باردة إليه ، داخل المصعد ، من الخارج ، ويشعر بارتياح لا حدّ له ، بفرح لا حدّ له . ثم يرى الموظفين والموظفات وهم يبتسمون . وهو الوجيه ـ صاحب الهيبة ـ «بالشورت» الداخلي الذي يستر عورته فقط . . فقط . . ومن الفرح يبتسم الوجيه . . بل يضحك . . ويضحك الموظفون . . ويلتمّون خارج المصعد ، حوله ، أمام المكاتب . . أحدهم يلبسه ثوبه ، آخر حذاءه ، ثالث جوربه ، رابع غترته ، عقاله ، انشغل به خامس ، وسادس يمسح عرقه بورق كلينكس . . بمنديل ، بغترة أخرى خلعها . . وهو ـ الوجيه ـ يبتسم في ودّ ، في ارتياح . ويستند على كتف محمود . . والفراشون يركضون بالماء . . الماء . . والوجيه يشرب ، ويلهث ويبتسم!

غليون العقيد

كانت وصية العقيد أن يوضع جسده في صندوق زجاجي كبير . وأن يستقر سيفه الفضي بجانبه . اختارت زوجته حديقة المنزل . وشاهد الجمهور من وراء السور وجه العقيد الصامت المهيب . وجاء الأطفال الفقراء مع أجدادهم للفرجة . لم تغضب زوجة العقيد ، بل فتحت الباب على مصراعيه . ليراه الجمهور وهو مسجى وغليونه في فمه!

لم اختار العقيد أن يموت بهذه الصورة؟ عجزت الزوجة عن الرد على أسئلة المعزين والصحفيين والجمهور . بعضهم قال ليرهب الثوار في موته . . وبعضهم قال : بطبعه يكره العقيد القبور والأماكن الضيقة والعزلة .

كان العقيد يعيش كل حياته في الهواء الطلق . وينام في بستان خاص يقضي فيه أوقاته السرية . لا أحد يستطيع عدّ خليلات العقيد أو قتلاه فقد برع في الموت والنساء . وكان على قدر كافٍ من الوسامة وقوة الشخصية .

بعد أيام ذوى وجه العقيد وتحول إلى البياض وأصبح عجينة هالكة ،

وخرجت رائحة نفّاذة مخترقة الزجاج الجميل . لم تكن الرائحة القوية تناسب جلال الجثة والنجوم والسيف والصندوق الزجاجي . كان الجمهور يحضر في طوابير طويلة لمشاهدة العقيد ، وكانت زوجته تطلب التزام الهدوء . ولأن العقيد أوصى أن ينكسر الصندوق الزجاجي بنفسه بفعل الحرارة ، أو الزمن فقد وجدت زوجته نفسها في موقف حرج . . مع الرائحة النتنة ، كان الدود يسير أصفر على جدران الزجاج ويتثاءب . وبعد أسابيع صفر حجم الرأس . وتلوث وجهه ببقع سوداء . وطار بعض الذباب من الصندوق . كانت جثة العقيد تبدو في هيئة جديدة : سيقانه الطويلة . عظامه الممتدة . واللحم الذي علق بالأضلاع . وبقع الدم الجاف والرصاصات التي اخترقت جسده .

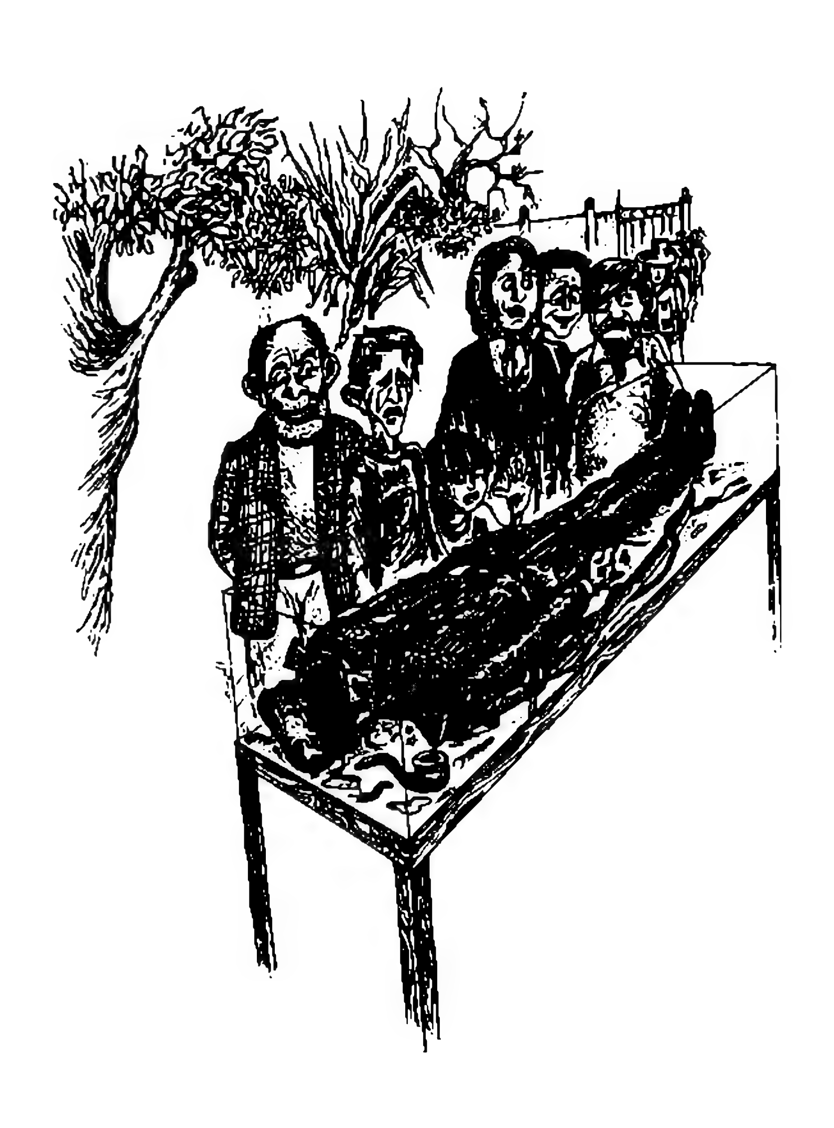
لم تعد زوجته قادرة على النظر إلى الجثة بهذه الهيئة المزرية . الوجه كان يتفحم . والدود يغطي عينه وأهدابه ويرضع دمه ويحاول اختراق الزجاج ولحسه ثم يسقط فوق الجثة .

عاش العقيد ما يربو على الخمسمئة عام . وتزوج أربعين ألف زوجة وعاشر مائة ألف جارية وشرب نصف خمور الأرض . وأنجب شعباً بأكمله . وكان يعتقد أن الجمهور هم من أبنائه وأحفاده . . ومن حقهم أن يلقوا عليه النظرة الأخيرة .

كانت الطوابير تمضي صامتة ويبتهل الرجال والنساء الكبار إلى اللّه أن يعفو عن ذنوبه الكثيرةوآثامه الجمة فقد تجاهل أبوته لشعبه ونسي ذريته وانغمس في حياته الخاصة وأفرط في اللهو والشراب والنساء وقتل الثوار .

وكان لا يؤمن إلا بنفسه . وقد صاغ له حياة محكمة وتحصن كالقلاع وكان يشاهد في سيارة سوداء مغلقة تغطيها ستائر سوداء .

وكانت العصا المصقولة لا تفارق خصره .



ولفرط انشغاله كان ينام على جثث قتلاه في الشوارع .

في يوم مطير آخر اهتزت الأشجار في الحديقة ، وسقط الورق الأصفر على الصندوق الزجاجي الذي يستقبل المطر بهدوء . كان وجه العقيد يختفي خلف المطر والزجاج ويكاد يتلاشى . كان الصندوق في الصباح التالي يميل للبياض . وشاهد الجمهور الذي لم ينقطع عن زيارة العقيد عظامه الكبيرة وعليها التيجان والنجوم والدود والصديد . وكان السيف يصدأ بفعل الرطوبة مع الأيام . بعد أيام فوجئت زوجة العقيد بأمر عسكري يطالبها بدفن عظامه والاحتفاظ بسيفه ونجومه للذكرى . ورفضت زوجته تنفيذ الأوامر بشدة . قالت السلطات العسكرية أن بقاء هيكل العقيد بهذه الطريقة قد أضاع هيبة الدولة .

وأجابت الزوجة السلطات في خطاب رسمي غاضب أن الجمهور الذي يأتي للزيارة يكبر ، ولا بد من احترام رغبات الموتى . وجاءها الرد في الحال : لم يبق شيء من الجثة . . لم يبق من العقيد شيء!

أغضب هذا الخطاب زوجة العقيد وكتبت إلى السلطات العليا : إن هذه العظام قد حفظت نظام الدولة خمسة قرون . أما خطاب الرئاسة الأخير فقد جاء لينذر باجتثاث الصندوق الزجاجي وتحطيمه . في اليوم الثاني جاءت جرارات السلطة ، ودباباتها ، وبعض فرقها المدفعية . وكانت مفاجأة أخرى في انتظار الجميع هذه المرة فقد سرق الجمهور الغاضب هيكل العقيد ، ومثلوا به في الشوارع . وصنع الأطفال من عظامه وأسنانه ألعاباً وهمية وملأوا جمجمته بالتراب .

واتكأ رجل عجوز في الشارع على عظام ساقه الطويلة وهو يدخن . لكن أولاد الزنى الذين أنجبهم من خليلاته عبر قرون خرجوا مطالبين برميمه .

بعد شهور رأت زوجة العقيد وهي تهبط الشارع نجومه في صندوق الزبالة تحت أقدام الشحاذين . وبعد عام رأت غليونه الكبير في حديقة المنزل يستوطنه فأر صغير . وشاهدت بدلته العسكرية على شحاذ . ثم رأت سيفه بعد سنتين في عرض مسرحي لأولاد المدارس .

الجثة تطلق الرصاص

كنت واثقاً أنه رجل بالفعل ، وأنه جثة بالفعل ، أرجعت ذلك إلى خيالاتي وأوهامي التي ازدادت حدَّة هذه الأيام ، وكنت أريد أن أتأكد من هواجسي بالضبط . . بالضبط ما هو؟ . . هل أتخيله جثة أم أنه كذلك بالفعل؟ ولم أكن في حالة مستقرة تسمح لي بمعرفة ما يدور من حولي . . وما يدور في عقلي . . كان كل شيء ينبثق من الداخل كأمر عفوي كشعور الحب ، والكراهية ، والرغبة والصدود ، وكان هذا الشيء ينبثق أيضاً من خارجي . . من الرجل نفسه . كان رجلاً حقيقياً له شارب مقطوع بانتظام وفم مدوّر واسع ، وكان يرتدي غترة نظيفة بيضاء مسترسلة خلف ظهره ، وعقالاً أسود غارقاً في السواد . وكان يبتسم ويتحرك من أمامي ، وفي مكان ضاج ، كبير واسع ، لا أذكر إن كان مطعماً ، أو محفلاً من نوع ما . وكانت معه امرأة متوسطة الجمال ، وهادئة ، وتمضغ لباناً . وحمرتها فاقعة . وكان له داخل فمه حمرة غامقة كالتي تحدث عند الخمارين المختلين ، والمرضى بالمشروبات الروحية . قلت إنها أوهامي التي تتضخم . . ففي الأيام الأخيرة

بدأت أتصور تصورات خرافية ، أحياناً أرى نفسي طائراً جارحاً ، وأحياناً أتقمّص شخصيات غريبة . وكنت أتصرف مع الآخرين من هذه الهواجس والأوهام السوداوية التي أحالتني إلى إنسان أرى نفسي في أوضاع غريبة ، في أشكال غريبة ، أرى الآخرين في حالة من العري ، أو الدهشة ، ثم أجد في نفسي رغبة جارفة لفعل شيء يغضب منه الآخرون الذين أتصورهم في أوضاع لا يحبونها ، ولكنها ممكنة وتحدث في غير الأمكنة العامة . كانت هذه الحالات الغريبة تزورني بكثرة هذه الأيام ، قلت إن ما أتصوره عن هذا الرجل هو نوع من الهواجس والكوابيس . . كانت كوابيس مخيفة ، لأنني كنت أتصورها ممكنة الحدوث . . إنها حقيقة لا أكثر ، ولا أقل . . كان لا بد إذن من ترك الموضوع يأخذ مداه كالعادة . كنت أراهن نفسي على أنه رجل بالفعل ، وكانت نفسي تراهن نفسي على أنه جثة بالفعل ، وكنت أبتسم بعد ذلك وأخاف ، وأغضب وأتردد في الاقتراب منه . كانت المرأة تقف قريباً منه ، وبعيدة عنه . كانت تلاصقه ملاصقة الجسد ، وكانت تتظاهر بتجاهله وكانا يمضغان اللبان معاً . . وأخيراً . . اقتربت منهما لكي أتيقن . . كان فم الرجل مفتوحاً بتكرار بحكم مضغ اللبان ، وكان فم المرأة الأحمر الصاعق غارقاً في الصمت . وكان كل شيء مغلقاً الآن . الصمت الذي في الشارع المسائي خارج القاعة . الضوء الساطع في جانب والميت في جانب . استراحة وجه الرجل الذي كان لا يضحك كثيراً ولا يبتسم كثيراً . أحببت أن أخاطبه لأسمع صوته . كانت عيناه نائمتين . مسترخيتين . قلت إنه سعيد وسيتزوج في الأسبوع القادم ، ولا شكّ أنه لا يعرف أنني أراقبه كل هذه المراقبة ، وأدعي معرفته . ثم تساءلت هل يعرفني كما عرفته؟ هل الصلة بيني وبينه حقيقية؟ هل يستطيع التحدث إليّ في كل الأشياء التي أرغب

فيها . لا بد أن ثمة لقاء قد تم بيننا . . لكنه صغير السنّ . اعتقدت أن الرجل عاش زمنين ، عاش ومات ، وعاش مرة أخرى . . قلت : كم مرة ولد هذا الرجل؟ . . وكأنني كنت قد رأيت زوجته قبل ذلك في زمان ما في مكان ما ، وكانت عارية تماماً . وتذكرت سمرة جسدها الداكن . ولحظت غيرة الرجل عليها . قلت لا شك أنه سعيد . وقد يهم بقتلي لو سألته عن هويته في تلك اللحظة . وأنا أنظر إلى الرجل من زاوية ما ، انتبهت إلى صوت من خلفي . . لا . . من جانبي . . كان صوتاً منبثقاً من الداخل ، من الأشياء المحيطة بي . صوتاً نائماً ، مستقراً ودائماً . . قال لي :

ـ أنا فهمت ما يدور في مخيلتك هذه اللحظة!

وظل يبتسم . . وأضاف :

ـ هذه تهيؤات قد تحدث . . إنه جثة بالفعل؟!

عجبت من مطابقة أفكاري لأفكاره ، وقال لي الرجل بعد ذلك :

ـ إنه قد تحرك بفعل دوافع ، وحوافز ، وغايات . .

وأضاف :

ـ هو يزرع ، يرث ، وينام ، ويموت ، ويعيش ، ويتناسل منذ قرون .

قلت له :

ـ كيف تتناسل الجثث؟

قال الرجل :

ـ هذه مسألة بالغة الصعوبة ، ولا شك أنك تتصورها . . في عقلك . . أنت تحسده . . تتمنى أن تكون جثة ولا تستطيع .

رمقت الرجل بعيني . . قال لي :

ـ هل تصورتني جثة متحركة أخرى؟

كان يبتسم . رددت ابتسامة بابتسامة وقلت ما فاجأه تماماً :

ـ أتخيل أنني جثة متحركة أيضاً . . أشعر بالوهن والمرض ، كأنني أمشي حتى نصفي داخل الطين متى تنتهي هذه اللعبة؟

قال :

ـ لا شك أنك تعذب نفسك . . هذه اللعبة لم تدخلها بإرادتك . . حاول أن تنسى ما هو غير واقعي . .!

كان الرجل الجثة يرتدي كفناً أبيض ، ويمزقه كدودة تخرج من شرنقة ، كذبابة تخرج من دودة ، وكليل يدخل في نهار . يغضب لسبب ما ، ويخرج مسدساً كبيراً أسود ، ويطلق رصاصات في فمه ولا يموت . يندفع الدم الأحمر من فمه ، على صدره ، وثوبه ، كفنه الأبيض ، يتطيب دماً . ولا يموت . يصدر قهقهات وأوامر ونياشين . . ويفتح فمه الذي كطين ، أسمر ، متكور . . ولا يموت . ينظر إلى الجميع بعين هادئة ، وكان قد أردى مجموعة أخرى من القتلى عندما غضب . قلت للرجل الذي اقترب مني كثيراً ، وكاد يدخلني :

ـ لم أتصور أنه بهذه القوة . . كنت أتخيله ساذجاً!

ضحك الرجل بخوف ، وحذر ، كان مطمئناً لأن الرجل كان يقف في زاوية لا يرانا من خلالها نحن الاثنين . قال لي :

ـ لا تستغرب كل هذا ، فهو الأقوى . .

إن ما تتصوره محض أوهام . . هو رجل يعيش كما يجب . . وهذا سرّ قوته .

كنت أخاف الموت . ولم أتصور كيف مسك بيده الرخوة الطينية المسدس وأطلق بهدوء . رأيت المرأة التي تقف بجانبه تبتسم . نظر إليها نظرة آهلة



بالغايات الجنسية ، وفرك شنبه . كان له شنب أهل بالماضي والذكريات . . والقوة . بدا لي الآن شخصاً آخر ، ليس كما شاهدته في البداية . كنت أريد الاقتراب منه ، لكنني عدلت عن الفكرة . قلت للرجل :

ـ لماذا يورط نفسه وهو في شهر العسل؟

فقال لي :

ـ هذا الرجل لا يموت . . وربما لا يفكر في الموت . . وهو يأتي الأشياء ببساطة متناهية . لن تحضر الشرطة . ولن يندب الآخرون الموتى . عجبت كثيراً لأن الحفل ظل كما كان ، لا أحد انزعج لموت أربعة رجال في الثلاثين وثلاثة أطفال في السادسة ، وفتاتين في الرابعة عشرة ، كانت جثثهم موجودة بالفعل . . في نفس المكان . وقد هنأ حضور الحفل الرجل على قدرته في التصويب ، ثم سمعت موسيقى . . كنا في حفل . وكانت الجثث الساقطة بدمائها صامتة ، وكانت الجثة الكبيرة تتحرك بصمت يحيطها الإعجاب من كل جانب .

ـ ماذا حدث بالضبط؟

قال الرجل :

ـ يا لك من مسكين . . غازل أحدهم زوجته!

كنت أفكر : كيف تموت مجموعة من البشر لأن أحدهم غازل زوجته . . قلت : يجب أن أتحدث إليه . وبالفعل اقتربت منه . كان فمه يسيح دماً ، وطيناً ، وقيئاً ، وكانت عينه نائمة ، رأيت جثته تكبر وأنا أقترب ، وثوبه يزداد بياضاً واتساعاً . ورأيت المسدس يتحرك في يده وهو ساكن . قلت إنها الأوهام التي تطاردني هذه الأيام ، لا شيء مما أتصوره قد حدث . لا أحد يموت . . ولا دماء سالت ، ثم إن الرجل هادئ ، مسالم ، طيب . يجب أن

أقترب منه لأعرف نفسي . . لأتعرّف على ما حدث . عجبت عندما نظر إليّ بود وسذاجة ، ونظرت إليّ المرأة بحياد ، كان قصيراً الآن ، لا . . متوسط الطول . . أبداً ، وربما كما هو . . لا طويل ، ولا قصير ، ولم يكن يملأ فراغاً كبيراً ، وبدا لي ضعيفاً ، ومرتجفاً . عجبت ، ودهشت ، مت من الدهشة ، ومت من الخوف . هلكت من الفرح ، تواترت عليّ مشاعر كثيرة . . قلت : زال الخطر! . . لن أموت . . لن يقتلني الرجل بعد لحظات . . ثم إنني أقوى منه كثيراً . . أكبر قامة . أحدّ ذكاء . ثم إن الجريمة كانت من صلب خيالي . إن الحياة جميلة لو لا أنني مريض . . أوهامي هي التي تقتلني في كل لحظة . لم يكن الذي في يده مسدساً . كان طائراً من فخار . صنع في الهند . وعرفت أنه هدية حملها صديق . شعرت بالاطمئنان ، ولعنت الأوهام الكثيرة . كانت المرأة التي تقف بجانبه تبتسم لي وأرخت شفتيها قليلاً دلالة الاستراحة ، قلت له :

ـ هل تعرفني؟

نظر إليّ الرجل في استغراب ، وأراد أن ينقذ الموقف . فقال :

ـ نعم . . أعرفك جيداً!

عجبت من ذلك . قد يكون صادقاً . التقينا قبل ذلك . كان الرجل قد عاش ومات كثيراً ، وتناسل كثيراً وكنت أراه في صور كثيرة ، وفي هيئات كثيرة ، الوجه هو الذي كان يثيرني أكثر من أي شيء آخر . كنت أرى ذئباً في وجهه . ثم يدخل في وجهه حملاً صغيراً ، ثم تنقلب ألوانه ، ثم أراه يشبهني . .

قلت له :

ـ ألم تحدث جريمة قبل قليل؟

قال لي :

ـ لم أر شيئاً!

دهشت . . وقلت له :

ـ ألم تطلق الرصاص وتقتل؟

قال لي :

ـ هل تهزأ؟

ـ رأيت كل شيء . .

وأشرت إلى القتلى الذي يسقطون على الأرض . ولم أشاهد شيئاً بالمرة . كانت أرض القاعة نظيفة ، وعليها بعض الزهور . وكان بعض الأطفال يلعبون بألعابهم . لم أر دماً على الأرض . . دهشت . . ماذا حدث بالضبط؟ والرجل الذي كان يؤكد لي أشياء كثيرة . . أيضاً اختفى . قلت له :

ـ كانت لك قامة كبيرة . . كنت أخاف الاقتراب منك . . هل أنت رجل بالفعل؟

دهش الرجل لأسئلتي المتواترة . . وظنني ممسوساً ، لم يجبني في الحال كنت أراه ضئيلاً . .

قال لي :

ـ ماذا تريد بالضبط؟

قلت له وأنا في غاية الارتباك :

ـ من أي شيء؟

قال لي ذلك بدهشة . .

ـ من أشياء كثيرة . .!

وحاولت أن أذيب دهشته . .

ـ أشياء حدثت بالفعل قبل لحظة . .!

قال لي :

ـ صفها . . ما هي هذه الأشياء . .؟

كنت أريد لمسه . وجدت في ذلك مخاطرة صعبة ، أو أنه قد يبدأ في الغضب . تحول من جثة إلى آدمي ، ويبدو أنني استرسلت في أوهامي . قررت الابتعاد ، لكنه في اللحظة الأخيرة قال لي :

ـ أرجو ألا تخبر أحداً بما رأيت!

هالتني الدهشة دفعة واحدة ، ونظرت إلي المرأة نظرة ترج وإعجاب .

قالت المرأة :

ـ لا يستطيع ملاحظة ذلك إلا رجال خارقون مثلك . .!

قلت له بسرور :

ـ كنت متيقناً من ذلك ، وأرجو ألاّ تكرر ذلك مرة أخرى ، لأنه كان رهيباً!

قال لي :

ـ كيف لاحظت كلّ شيء؟ لم أكن أتوقع منك ذلك ، ظننتك مثلهم . وربما لو علمت بوجودك لترددت كثيراً!

قلت له :

ـ أين أخفيت المسدس؟

قال لي :

ـ المسدس في جيبي . .

ـ والقتلى . .

ـ موجودن في مكان قريب .

ـ لماذا اخترت هذا الاحتفال الكبير؟

ـ في الهرج والمرج يمرّ كلّ شيء بسلام . الناس مشغولون بالفرح . . وهذه أنسب اللحظات . .

قلت له :

ـ إذن سأبلغ السلطات عن هذه الجريمة؟

ابتسم الرجل ، وقال :

لا أحد يلاحظ ذلك . . إنها أوهام . . ولا شيء سيحدث . . كل شيء سيكون طبيعياً .

قلت له :

ـ أنت مجرم كبير!

قال :

ـ اعترفت لك فقط من باب التنكيل بك . لن تصل إلى بيتك هذه الليلة ، ستكون جثة في كل الأحوال . . كنت أرصدك عندما دخلت القاعة . . هل تريد أن تجرّب؟ . . المسألة في غاية البساطة . والمسدس في جيبي . والحفل يبدأ فقط . هل لاحظ أحد الحضور حادثة الموت؟ . . إنهم يرقصون بمرح .

نظرت إلى الرجل برهبة ، ورأيت ثوبه الأبيض ينتفخ ، ثم رأيت عينيه سارحتين ، وكان طوله يأخذ في التمدد ، وكان يبتسم لي في سخرية :

ـ لماذا فعلت ذلك؟

قال :

ـ من أجل الجمهور . .

ـ وما جريمة القتلى؟

قال :

ـ لا توجد جريمة . . وإنما لا يعرف الأحياء لذة العيش إلا إذا عرفوا الموت . .

قلت له :

ـ لن أتركك تذهب!

لم أكن أصدق أن الرجل الذي كان في غاية الهدوء يضحك هذه الضحكة الهستيرية ، ثم يعانق زوجته عناقاً فاضحاً ، ويقبلها . . ثم تهيأ الرجل للرقص ، وطلب مشروباً بإشارة من يده . كان واثقاً أن شيئاً ما لن يحدث وأن الجمهور ماضٍ في الرقص .

كنت أتأمله وأفكر .

ثم بدأت جثّته تكبر . وشفته السفلى تذوب كالطيف وتزداد رطوبة ، وتهطل شيئاً أحمر . وعندما حاولت لمسه قبل أن أبتعد انطلق عيار ناري من خلفي . وقال لي رجل يرتدي بزة عسكرية :

ـ لا تخف . . هذه ألعاب نارية!

ثم جرني من كتفي . التفتُّ إلى الرجل أنظر إليه للمرة الأخيرة . كان يبتسم ابتسامة خبيثة منتصرة ، وكانت شفته متورّمة وعليها دم جاف أحمر . ثم حياه العسكري تحية عسكرية ومضى بي خارجاً من القاعة . كنت أبتعد ، وأسمع أصداء الموسيقى . . وكنت متأكداً هذه المرة والعسكري بجانبي كالجدار الساقط على كتفي إنني لا أتوهم .



أولاد النفط

قال صلاح سرحان لأخيه أحمد سرحان والحيرة تلتهم صوته فيخرج واهناً معجوناً عبر الهاتف النقال :

ـ لو تحتمل فترة أطول يا أحمد!

فقال أحمد :

ـ صبرت خمس سنوات!

وأضاف :

ـ هل أحتمل الموضوع وحدي إلى الأبد؟!

ـ أنت يا أحمد؟! . . أنت من يقول هذا؟! . . إذن ماذا نقول نحن؟!

ـ أنتما تستغلان طيبتي . . الأنانية أراقت حياءكما . .

ـ طفرت من أبيك يا أحمد؟!

ـ أريد أن أعيش!

فقال صلاح برجاء :

ـ لا يكلفك وجوده في البيت الكثير!

فـخر أحمد بشدة وقال وهو يضحك :

ـ إذن . . لماذا لا تأخذه في بيتك ما دام وجوده سهلاً؟!

ـ لو كانت ظروفي تسمح . بيتي صغير . . وراتبي لا يكفي للإيجار والكهرباء والتليفون ، وزوجتي لا تعمل . . أما أنت فميسور والحمد لله . . رئيس في البنك . . وخطيبتك تعمل! لا يحتاج إلى أكثر من وجبات ثلاث وإبرة «الأنسولين» ولديكم خدامة يا أحمد!

ـ إذن أنت ترفض أباك العاجز في آخر أيامه؟!

ـ احتملت أنت الكثير يا أحمد وبقي القليل . . سيموت قريباً!

ـ متى؟!

ـ هي أيامه الأخيرة!

ـ قلت لي ذلك منذ خمس سنوات . . ولم يمت!

ـ يا أحمد أرجوك! . . شهوراً فقط . . وربما أسابيع . . لن يعيش أكثر!

ـ اسمع!

قال صلاح :

ـ لِمَ غيرت رأيك فجأة؟!

ـ من قال فجأة؟! كنت أريد تحويله إليكما لكنني أعرف رأيكما مسبقاً!

ـ هذا ما عرفناه عنك . . رقيق وطيب! . كان يدلّلك ، ويمنحك حصصاً أكبر من المال . .

ـ تريد أن تتخلص منه بهذا الكلام؟

ـ كنت مصدر غيرة لنا أنا وإبراهيم . . كان يضربنا ويدلّلك .

ـ كنت أدخل معه البحر . . نصطاد السمك . . كان يعطيني مالاً بالمقابل . . أما أنتما فتلعبان كرة القدم طول الوقت .

ـ أسمع! أحمد! هل تسمعني؟!

ـ نعم . .!

ـ لم لا تأخذه إلى دار العجزة؟!

ـ دار العجزة؟!

ـ كل الناس يأخذون ذويهم إلى دار العجزة؟!

ـ أعرف . . فكّرت . . فكّرت . . دار العجزة!

ـ مأوى نظيف خاص للعجزة .

ـ هل نرمي أبانا في مبنى بعيد؟ هل ندفنه حياً؟!

ـ لا تزعل . أحمد! خطيبتك وراء الموضوع؟!

ـ ليس مهماً من يكون وراء الموضوع!

ـ هل تحسّ بالحرج . .؟ لم تصرخ؟ كنت لا تشتكي من ذلك . . كنت تعطيه إبرة (الأنسولين) وتغسله . . وتأخذه على الكرسي المتحرك كل مساء ليستنشق لهواء الطلق في الخارج . . إنه أبوك يا أحمد!

ـ أبي أنا فقط؟! . . وأنت؟!

ـ حاول الاتصال بدار العجزة! ولننهي الموضوع!!

ـ لا جدوى معك إذن؟!

ـ ستنهار حياتي! . . أسرتي ستنهار يا أحمد!

ـ اتصلت بك كي تنقذني من هذه الورطة يا صلاح!

ـ أرجوك . . اعذرني!

ـ اسمع!

وهو غاضب قال أحمد :

ـ إذا لم توافق على أخذه من بيتي سأحضره وأتركه عند باب بيتك!

وغضب صلاح :

ـ تريد إحراجي أمام الناس يا أحمد؟!

ـ لتكن أمام الأمر الواقع!

ـ تهدّدني يا أحمد؟!

ـ ماذا أفعل؟ احتملته خمس سنوات .

ـ خذه إلى بيت ابراهيم . . إنه عازب!

ـ لن يقبل . .

ـ فكّر في حل آخر إذن!

- ستراه في الصباح نائماً على بابك فوق كرسيه المتحرك . . يجب أن تستقبل أباك يا صلاح استقبالاً يليق به!

ـ أتسخر؟! . . ماذا سيقول الناس عنا؟!

ـ أدخله في بيتك إذن!

ـ قلت لك إن ظروفي صعبة . .

ـ أنا أخذته فترة طويلة! وأنت لم تأخذه قط!

ـ أنت لا تريد أن تفهم ظروفي . خطيبتك أثر لديك من أبيك؟!

ـ لا فائدة إذن!

ـ لِمَ لمْ تتصل بإبراهيم؟

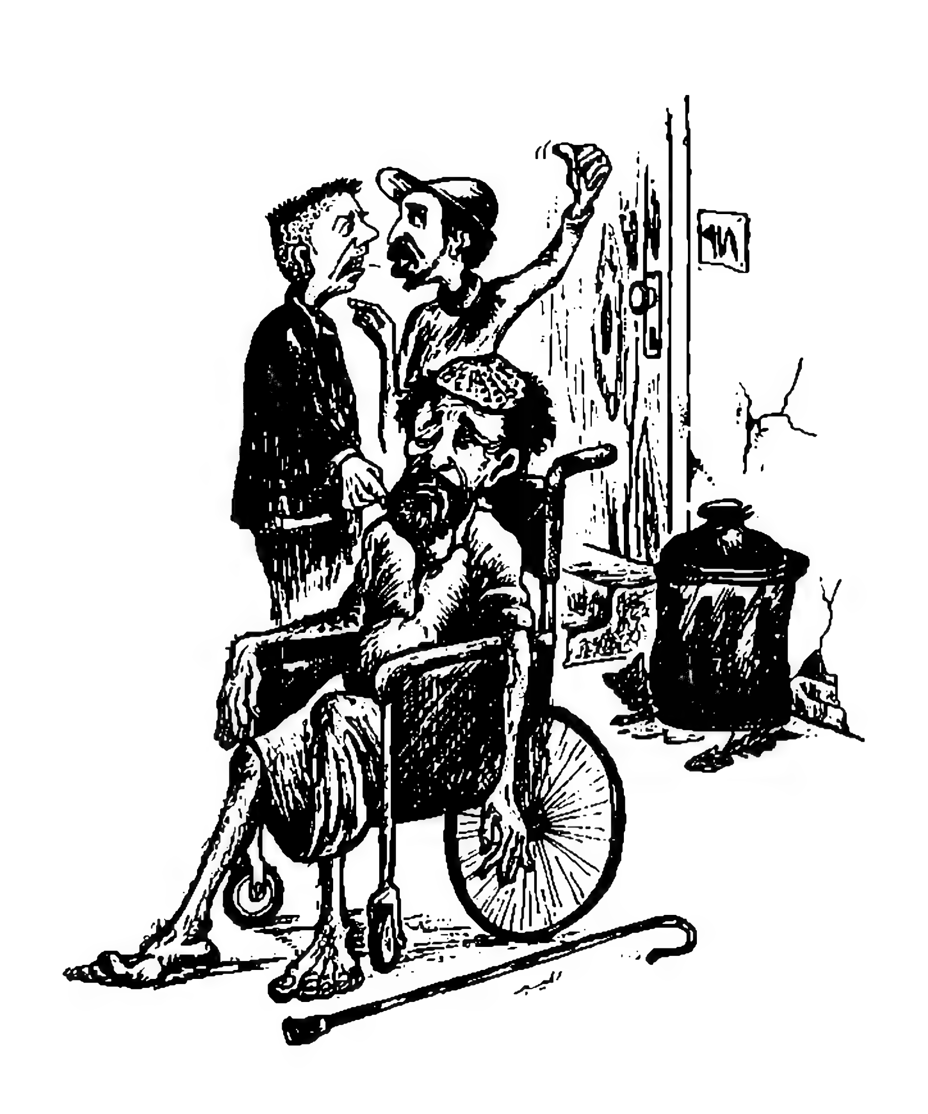
ـ إبراهيم لا يكترث إلاّ بنفسه . . إنه وغد!

ـ تريد أن ترمي أباك في الشارع!

ـ اخجل يا صلاح؟! . . أنا رعيته خمس سنوات؟!

ـ ألم تهدّدني بذلك؟

قلت لك إنني سأحضره إليك . .



ـ وتتركه عند باب بيتي!

ـ ستأخذه بالحتم . . ولا يمكن تركه في الشارع!

ـ سأفعل . سأتركه في الشارع! إذا كنت تريد استغلال طيبتي سأعاندك .! وسأرد لك الصاع صاعين! سأقول للناس إنك رميته في الشارع!

ـ سيكون أمام بيتك . . وسيلومونك أنت . .

ـ سأعيده إلى بيتك!

ـ توقّف! اعقل! أبونا ليس لعبة!

ـ أخرجتك خطيبتك الجميلة عن صوابك!

ـ أنا مستعد للمشاركة في مصروف بيتك إذا كانت هي المشكلة!

ـ لا! لا! . . المشكلة أكبر . . رجل عاجز يحتاج إلى عناية كبيرة . . . وجوده نصف ميت نصف حي يثير الخوف والكآبة بالمنزل . .

ـ احتملت أنا ذلك سنوات طويلة . .!

ـ هو يحبّك! أتذكر صحبتكما في البحر؟ غيرت خطيبتك طبعك النبيل؟!

ـ أنا رجل . . وأتّخذ قراراتي كما أريد .! أنا مقتنع بما أقول . .! يجب أن نتشاطر المسؤولية جميعاً أنا وأنت وإبراهيم!

ـ هكذا قالت خطيبتك؟!

ـ وهذا هو المنطق!

ـ لمَ لَمْ تقل ذلك قبل أن تعرفها؟

ـ كنت أفكر في ذلك . .

ـ ثم هي دفعت الموضوع إلى السطح . وأنت قرّرت أن ترمي أباك في الشارع!

ـ لن أرميه . . سأحضره إليك .

ـ لن أستقبله . . سأعتبر ذلك تحدياً لي وسأجيبك بالمثل . . لن أدخا بيتي برغبتك! . . لتحولا حياتي إلى جحيم وتعيشا في رغد العيش أنن وخطيبتك! اسمع يا أحمد! قلت لك إن دار العجزة هو المكان الأنسب!

– اتصلت بدار العجزة ولا يوجد مكان ، وقائمة الانتظار طويلة!

ـ الناس يفكرون بواقعية . .

ـ ما الحل إذن؟

ـ اتصل بإبراهيم .

ـ تقول لي إبراهيم؟! مرة أخرى؟! لا تنس أنني أخوك الأكبر! فقدت عقلك؟ إذن سأفعلها سأفعلها !

ـ ماذا؟! . . تفعلها؟!

ـ رغم أنفك!!



كرستال

ـ لقد مللته!

ـ غير معقول؟

قالت [سحر] وصمتت تنظر إلى صديقتها وتنتظر تفسيراً لما حدث . لم تصدق ما تسمع . [وداد] لم تلتفت ولم تفسر فالأمر غامض بالنسبة لها أيضاً . كانت تنظر إلى الجدار المواجه لها . ولم تكن ترى الجدار إطلاقاً! كانت تفكر! تفكر فيه ولكن هذه المرة بطريقة مغايرة ، سلبية بالتأكيد . في الشهور الماضية كانت أيضاً تفكر فيه ، وتشعر بلذة امتلاكه . السعادة كانت تطوقها كل الوقت . كانت تصفن هذه اللحظة . (سحر) تتأملها منتظرة تفسيراً منطقياً لهذا التغيير . لا شك أنها كانت قلقة قبل أن تقولها وربما فكرت في الكلمة عشرات المرات . وربما اختبرت مشاعرها معه . وقد يكون هذا التحول حدث بالتدريج . دون أن تعلم عنه هي نفسها ، فالحب يبدأ عاصفاً ويخبوا بهدوء ، والمشاعر كائنات حية مثلنا تكبر وتصغر وتنمو وتبدأ

وتنتهي! لكن (وداد) لا تعلم . لم تعلم . في حيرتها أخفت الأمر في البداية . في البداية أحبت وداعته وهدوءه ، واستسلامه لها وانسياقه وراءها ، واستقامته ، وثروته . كانت ابتسامته الدائمة تشعرها براحة عميقة . ويسترخي جسدها على صوته الفاتر . في تلك الأيام قالت لسحر في فرح :

ـ زوجي رومانسي للغاية!

فقالت سحر :

ـ هذا هو المطلوب!

كانت قد رأت عينه المسبلة المريضة وهو يحدثها على مهل كالجدول . تطري كل الوقت صفاته وشمائله واستقامته وتقول : (لم يلتفت إلى امرأة قط) وعندما تفرغ يكون موعده قد أزف ، تذهب إليه في لهفة طائرة بلا جناحين ويأتيها هادئاً كالنسمة!

ـ آه . . كيف لم أعرف ذلك!

قالت (وداد) .

كانت آهتها عميقة ومنفلتة من أحشائها وحارقة . رأفت بها (سحر) ، رقت لحالها و . . .

ـ هل خانك؟

الخيانة؟ يعتقد النساء أن الرجل يخون بسرعة لأسباب كثيرة : التقاليد والاستثارة السريعة بجسد المرأة الخارجي . هذا لا يحدث لدى المرأة . الرجل يثيره نهد مرتفع . تصرعه عين فاتنة ، تجرحه نظرة خاطفة . الرجل يتبع عجيزة ناهضة إلى آخر العالم ، وهو بطبعه خائن! لا بد أن شيئاً من هذا قد حدث؟ كانت (وداد) لا تزال في أفقها وقفصها الخاص لا تفهم كيف فلت منها الأمر بهذه السرعة . ما حدث ليس واضحاً تماماً . ذلك ضاعف حيرتها

ويأسها . لو كان الأمر شديد الوضوح لما ذهبت إلى آخر الشوط معه! وحددت يوم الزواج ، ومكان شهر العسل ، ماذا كانت تريد؟ ومن أين تبدأ الكلام مع (سحر) فقد اخفت عليها فترة من الزمن ، في ذلك الوقت أرادت أن تتأكد من مشاعرها تجاهه . تتأكد إن كانت بالفعل ترى فيه شخصاً آخر! لم تصدق وهي تتراجع بالتدريج أنه هو نفسه؟ نفس الشخص الذي أعجبت به للغاية وإلى درجة الافتتان! هو ، هو بوسامته وخلقه وصوته المتكسر كالموجة في لحظاتها الأخيرة عند شاطئ ذهبي . عندما عانق الشاطئ هذا البحر تحول إلى بحيرة . ثم إلى بقعة صغيرة من الماء الآسن . قالت ذلك بالتحديد (ماء آسن) وهي لا تزال ترنو إلى الجدار . كيف تخرج من هذا المأزق! كانت (سحر) تنتظر . ولما رأت صمتها يطول راحت تبحث عن مفاتيح الحكاية وتفاصيلها .

ـ ألا تحبينه؟

ـ كان ذلك في البداية .

ـ ووافقت على الزواج منه؟

ـ نعم وافقت!

ـ قلت أيضاً أنه كامل الأوصاف؟ ورحت تستمعين طوال الوقت إلى أغنية عبد الحليم حافظ! وضحكت (سحر) .

ـ ظننته كذلك!

ـ وقلت إنك محظوظة!

ـ نعم!

أهلها أيضاً قالوا : حظك من السماء! السماء أرسلت هذا الرجل الملائكي الذي يشبه سحابة صيفية هادئة لإسعادك!

وهو بالفعل سحابة صيف ، فهو لم يمطرها وها هو ينقشع سريعاً .

ـ لا أعرف كيف أتخلص منه!

قالت (وداد)

فوجئت (سحر) بالكلمة! ألم تتمنى هي أيضاً رجلاً مثله؟ ما الذي ينقصه؟

ـ تكلمي؟ ماذا حدث؟

ـ أنا لم ألاحظه تمام الملاحظة في البداية . انخدعت! يا إله! لقد بدأ الأمر مختلفاً تماماً في البداية!

ـ ما الذي لم تلاحظيه؟ ما الذي لاحظتيه؟

ـ لم ألاحظ عليه بعض الصفات التي أخذت تكبر وتتضح مع الوقت . . الصفات السيئة بالطبع!

ـ أنا لم أفهم حتى الآن؟

ـ إذن أفهمي أنني أريد رجلاً عاصفاً! عاصفاً! عاصفاً!

قالتها بانفعال ضاغطة على الكلمة الأخيرة بشدة ، وبصوت مرتفع وعاصف!

ـ الرجل العاصف؟

سألت (سحر) .

ـ نعم!

ـ وزوجك طيب فحسب! وهادىء؟

ـ لا أنكر ذلك .

ـ وهل الطيبة مشكلة؟

ـ في حالتي نعم!



ـ ما الذي ينقصه؟

ـ أشـيـاء كـثـيرة . . يوافـقني في كل شـيء . لم يعـترض قط على فكرة قلتـها . لـم يخـالف رغـبـة من رغـبـاتي . يحاول إرضـائي حتـى عندمـا أكـون مـخطـئـة! والهـدوء الذي سـحـرني في البـداية تجلى عن برود قـاتـل . تهـذيبـه المبالغ فيه صار حـاجزاً يفصلنا . بارد إلى درجة الصـفر! أحياناً أشعر أنه لا يشعر! . أحس بالوحدة معه كأنـني أنا وحدي!

ابتـسـمـت (سـحر) بدورها . (وداد) انطلقـت في الحديـث بانفعال وجـسـدها يرتجف .

ـ لم أعد أرى جمالاً في وجهه ولا عذوبة في كلامه ، لقد اختفى كل ذلك . وعينه السـاحرة صارت من زجاج . رجل فارغ ، مثل كأس الكرستال! جمـيل وفارغ! ولمعـانه الخارجي كاذب . بدأت أمله أمله! . اكـتـشـفت أني أنا التي كنـت أبث فـيـه الحيـاة! أنا التي أحـركـه وأنا التي أدغـدغـه كطفل ليـضحك . أقلب جثته! أضع قلبه على ناري الملتهـبة ، وأدفع مـشـاعره النـائمة إلى الـسـطح . أتصرف بالنـيابة عنه ، وأهـيئ لنـفـسـي تلك الكذبة البـيـضـاء التي اكـتـشـفـتـها بالتـدريج . عندمـا اتضح لي مع الوقت بدأت أصـمت وأصـمـت وانتظر أن يـبدأ فلم يبدأ إنه في انتظاري دائماً . وفي الصـمـت ظهرت ملامحه الرخوة . وماءه اللزج الثقيل ، وعيـنه النـائمة كالعجين .

في دهـشـة سألتها (سحر) :

ـ بعد كل هذه الشـهور الطويلة؟

ـ نعم . . سـأتركه! سـأهجره!

ابتـسـمـت (سـحر) وقالت :

ـ وتبحثين عن العاصفة؟

ـ نعم . رجل يرج روحي وجسدي . رجل صعب ، وقوي ، وصاخب ، وغامض ، ومفاجيء ، ويبتكر لي السعادة ، ويختار معي الأمكنة والمتع والألوان والبلدان والمدن والشوارع والأنهار والأزهار والفضاءات والقصائد وهو شخص آخر كل يوم ، شخص يزداد ابتهاجاً وتوهجاً ورونقاً وفتنةً ، شخص يعترض ، يغضب ويغير . أريد رجلاً يبدع الحياة! رجل يعرف فن الحياة!

قطبت (سحر) وضغطت شفتها السفلية . كانت مستسلمة للحديث . ولم تعد مندهشة من شيء . فهمت (وداد) أنها توافقها على قرارها الذي يجب أن لا تتراجع عنه إطلاقاً . وبهدوء سحبت (وداد) خاتم الزواج ووضعته في الحقيبة .

ضيف قديم

كان وجهه في الغرفة عابساً . وانتقل هذا السواد إلى الجدران والمقاعد الساكنة . . كنت تحت حراسته المشددة . لم أكن قادراً على الحركة في أي اتجاه . كان يحمل وعاءً مليئاً بإبر طويلة حادة ، يضع الإبرة في زندي ، ثم يغرزها بعنف وأشعر بخور ، وأتمدد على السرير في انتظار أن يخرج ، أو ينام ، أو يغفل . كان ينظر إلى الظلام الذي في الخارج بخوف ، كأن هذا الضباب الداكن يسكنه هو الآخر . يمل من مكوثه الطويل معي ويتململ ، أظنه خارجاً لكنه لا يفعل . منكبٌ أنا على السرير ـ وضوء المصباح مشتعل في النهار ـ وهو جالس على مقعده . أنظر إليه ملياً ، أسأله من أنت؟ وما وظيفتك؟ لم أنت هنا طول الوقت؟ يبتسم ويقول : أنت تعرف كل شيء! أدهش ، كيف أعرف؟ أشعر بكسل ونعاس دائم . يعرف أنني مريض ، وأنني غير قادر على الحركة منذ زمن . كان ينتحل عدة شخصيات بحكم مهنته ، تراه رجل أعمال في ملابس نظيفة رقيقة ، بنظارة وسامونايت ، وتراه سائحاً ممتلئاً بالكاميرات وحقائب اليد الصغيرة . قال لي : إلِمَ اخترت هذه

الطريق؟ الداخل هائل؟ ظلام . هوّة سحيقة . ستموت من الرطوبة والخوف . ستنتظر أشياء لا تحدث! . كنت في أسره لا أميل إلى الأكل ، ولا النوم ، ولا الكلام . كان يضعني في مواجهة أشياء كثيرة : حياتي ، علاقاتي ، أحلامي المجنحة . يشير إلى الشارع ، يحيلني إلى الإعجاب المنقطع النظير الذي يحيطه . لا يخلو من جمال ، وهيبة . له أشداق كالبوابات الكبيرة في القلاع القديمة . كالصخور السوداء أمام البحر الهائل . وكان شعره طويلاً منبسطاً على ظهره العريض كالبحر . وعلى ظهره العريض كالبحر كانت المدينة تسترخي بنسائها وطيورها وعرباتها الجديدة الثمينة ، وكان يسير هو بكل شيء ، فخوراً بحجمه ، وبقدرته الخارقة على والتحمل . وبحركة صغيرة منه كان يسقط من يشاء من البشر والعربات . لم أستطع مقاومته لأن صورته الحسيّة لم تكن واضحة لي . الرصاص لن يقتله . السيوف لا تنحرد ، لا يموت ، وهذا سبب حيرتي . سر ذهابي إلى الداخل دائماً ، إلى الظلام ، إلى السكون الذي أستعيد فيه كل شيء . منذ أن كنت بذرة تطير في فمه . كان ينام على المقعد الطويل نوماً هادئاً ، وكان يستيقظ في العاشرة صباحاً . يحب البيض بالعيون والحليب الغليظ الأبيض . والخمر الأحمر . يسهر طويلاً . في الغرفة التي تجاورني . يحضر أصدقاؤه كل ليلة ، لا يخرج هو بل يأتون إليه . يحضرون معهم الخمر الأحمر واللحم الأحمر والنساء الحمر . أجلس أنا أمام نافذتي ، أسمع ضحكهم طوال الليل . يتدفق من خلف النافذة ظلام آخر يدخل كالرصاص المسكوب . يملأ حنجرتي الدافئة . أتمدّد على السرير فيخف شعوري بالغبن ، ميلي إلى البكاء ، حسرتي . تعلمت أشياء كثيرة كنت نسيتها . ذهب إلى طرف الغرفة وأشعل ضوء آخر وقال : [إن أحببت تركتك فترة من الوقت ثم عدت إلى زيارتك ، لكنني اعتدت عليك . كيف

أعيش بدونك؟]قلت له : [إذا ذهبت سأتبعك . . لا أستطيع غير ذلك . . لا أعرف غير ذلك . لن يكون غير ذلك . . أريد أن أتعلّم المشي والكلام والشعور من جديد . أريد أن أخرج منك ، وأخرج من نفسي . . هل تغيرت الأشياء في الخارج؟] قال [كل شيء تغير . . سنوات لا تظل الأمور على الثبات ، لن ترى الناس كما كانوا ، قاماتهم ملونة ، ووجوههم رحبة ، عماراتهم طويلة ، وعرباتهم زاهية . يجب أن تنزل إلى الشارع ، ترى الأشياء بنفسك . قد تطرد هذا الظلام الذي تعيش فيه . . ترى الحياة بمنظار آخر ، إن شئت بصحبتي . . هل نخرج هذا اليوم إلى مطعم في المدينة؟] قلت : [لا أستطيع المشي] . ضحك وقال : [سوف أحملك . . ألم تحملني سنوات؟ معاً هذه المرة أيضاً . . سنكون دائماً معاً . . لا تستبد بأوهامك . . اخرج . . وانظر ، واشبع ، لم تتوقف في محطتي؟] حملني من على السرير . ألبسني ثياباً جديدة ، وحذاءً دهنه بيده . سوّى الغترة ، ووضع العقال كالتاج فوق رأسي . . قلت له : اعتدت الملابس الإفرنجية . ضحك واستمر يلبسني . عطرني بعطره الخاص . أخذني إلى مطعم هابط السقوف فيه ثريات كثيرة ، وديكورات زاهية ، وندل موشاة ملابسهم بتطريزات جميلة . طلب خمراً . وأسمعني عزفاً . عندما شربت كأسين غاب عني تماماً . لم أره على طاولتي . . كنت وحدي . بحثت عنه ، وسألت الندل : أين ذهب صاحبي؟ دهش الندل . قلت لهم : جئنا اثنين فأين ذهب صاحبي؟ قال الندل : إنها الخمرة يا سيدي . . كنت وحيداً ، جئت وحيداً . من أحضرني؟ كيف سرت على قدمين معطوبتين كالرماد؟ كنت أشعر بطلاقة بعد الكأس الثالثة ، وراق لي صوت المغنية ، وقوامها الذي يشبه ورق الكتابة ، ووجهها المبطن باللذة . كان صاحبي ينظر إليّ كلما رفعت الكأس ، يطل إطلالات متقطعة ، وكان مقعده فارغاً . عند

منتصف الليل عدت إلى شقتي . ونمت نوماً هادئاً حتى الصباح . قبل النوم لم أر أشياء كثيرة خبرتها . كانت النافذة مغلقة . كان في الليل نجوم وأقمار راقصة . . وكانت النجوم تسيل على ثوب الليل العريض سيل الدموع ، وكان سريري مرتباً ، ومنفضة سجائري خالية . وكان المصباح المضيء مطفأ . استيقظت من نومي ظهراً في اليوم التالي . كان يجلس نفس جلسته أمامي على نفس المقعد ، وكانت ابتسامته الخريفية ممتدة في كل وجهة . استعدت كل ما حدث . وعجبت عندما قال لي : [افتقدتك ليلة كاملة . . اكتشفت الطريقة المناسبة للفرار مني . . لا تكرر هذه الطريقة ، أبحث عن موتة شجاعة تليق بك] . كنت أتأمل ما حدث ليلة البارحة . . مضينا إلى المطعم سوياً ، قبل ذلك قرأنا الإعلان المكتوب في الجريدة معاً . قال : [كنت أريد أن أمنحك فرصة جديدة للحياة . . تيقن أنني لا أتبعك كما تتصور ، لا أتدخل في حياتك . لا أريد لك النهاية] . . كنت عطشى وسقاني ماء عذباً زلالاً ، ورحت أفكر فيه . كان يعاود تجواله في داخلي . ونبت ظلام هناك ، هضاب شاهقة من الحزن . ألم في ترقوتي ، كنت كابياً فوق السرير . قال : إنها الخمر . قلت : كانت محاولتي الأولى للهروب منك . . قال : تستطيع أن تفعل أشياء أخري . قلت : إنني أحاول ذلك منذ سنوات وأعجز . قال ضاحكاً : لم لا تتعايش معي؟ اعترفت له بما في نفسي : [إنني أكرهك . . أنت بشع] . . ضحك طويلاً . كنت أسمع طرقاً بالباب . نهض وعاد يحمل لي ورقة في يده . قال : قرأت هذه الورقة بالنيابة عنك ، أعرف أنك لن تستطيع قراءتها ، أو فهمها . . وإن فعلت فأنت عاجز عن الرد عليها . لا تصلح لشيء غير زيارة الطبيب والجلوس في السرير طول الوقت . وهذه رسالة تنذرك بقطع الكهرباء من المنزل إذا لم تسدّد قيمة الفاتورة . أعرف أنك لا

تملك نقوداً . ولا تعمل . أنا دفعت المبلغ المطلوب كما دفعت إيجار علاجك عند الطبيب النفسي ، أعتني بك في أصعب الحالات ، وما ازدراؤك لي إلاّ جحود يؤكد فساد معدنك . لا أريد منك شيئاً ، بت عبئاً ثقيلاً عليّ . قلت له : إنني أبادلك نفس الشعور . أريد أن أتخلص منك . . وأعرف أن المستشفى لن يحل لي المشكلة ، لذلك لن أذهب هناك . كان الليل قادماً من الفضاء الواسع والنجوم تمتلئ رقة . كانت غرفتي تطل على الشارع . وفي الشارع بقالات كثيرة وسيارات لا تنقطع عن السير . كنت أنظر من النافذة إلى الشارع . كان ينزع ملابسه ويرتدي القميص الأحمر . وذهب إلى الحمام ، ثم عاد بفوطة جرف بها وجهه . وقال : [اضطررت هذا اليوم أن أذهب إلى أماكن كثيرة ، وأن أقابل أشخاصاً كثيرين . يخافونني جميعاً . ربما كان مظهري هو السبب ، انحنى لي رجال أكبر مني سناً وأحسست بالخجل ، نهضوا من أماكنهم عدة مرات . ارتعدوا ، ومن يدري ، ربما سقطوا من الخوف وبالوا في ثيابهم . . كنت لا أنظر إليهم . . ماذا لو كنت أحمل مسدساً معي؟] قلت : لا بد أنهم تابعوك من مكان ما . التلفزيون مثلاً أو الصحف ، يعرفون متى تجيء ، وأين تذهب . . يعرفونك منذ زمن طويل ، ومن يدري ربما زرتهم مرات كثيرة . ورقدت معهم في أسرتهم . أنت لا تستقر في مكان ، لا تهدأ ، لا تنتظر ، ولا تعطيهم فرصة للخيار . أنت تختارهم . . سيقتلونك يوماً ما ليتخلصوا منك . . قال : كم تتمنى ذلك؟ من منكم سيفعل؟ قلت : سنموت جميعاً قابضين أعناق بعض . . موتة بشعة ، أنا وأنت . . مللت العيش معك ، عيشك في بدني . قال : هذه مساحتي . . ألعب فيها كما أشاء . . هل ستكرر تجربة المطعم؟ هي الطريقة الوحيدة التي تتخلص بها مني . لا أظهر مع الماء الزلال الأصفر ، لا أجتمع معه . .

تستطيع أن تعبَ من ذلك طويلاً . . سأمدّك بالمال ، ستكون طليقاً تتمتع بالنغم ، وتشغف قلبك بالأفخاذ العارمة كالقبب . تمتّع بحياتك فهي قصيرة . ما أبشع أن تموت على السرير وحدك . . . أقبل الليل . دعاني ثانية ــ وكان يسوي رباط عنقه ــ إلى مطعم «الجلنار» . كان حليقاً ، وشممت رائحة عطور ما بعد الحلاقة فأحسست بنشاط في بدني . قال لي : الليل طويل . . انهض من السرير . . لا تفكر كثيراً ، ولا تتردد ، تعال معي . كانت لحيتي طويلة وقذرة ، وكان جسدي منحلاً . دخلت الحمام بعد شهور من الانقطاع ، غزتني برودة الماء فارتعشت . كان هو في الخارج يصفّر ، وصعدت موسيقى راقصة في الصالة . كنت أسكن في الطابق الثالث . ارتديت بدلتي الزرقاء الأنيقة ورباط العنق المزهر . توقف الجيران في الممر ينظرون إليّ . كنت شاحباً . حييت جيراني بصوت واهن . كان صاحبي يصفرّ ويضغط زر المصعد الذي انقلب إلى اللون الأحمر . قفز المصعد ، واستوينا معاً في داخله . كانت الطرقات في الخارج طرية ندية ، وصاحبي خفيفاً بجانبي ، وكان يدخلني بحكاياته وأحاديثه ، ويذكر لي مداعباته السابقة . قال : كنت أريدك أن تعيش في مرارة الحياة لكي تشعر بحلاوة الدنيا . . كنت خارجاً منه تواً . . كان ــ وهو معي ــ يخرج من بدني . . يقترب قليلاً ، ويبتعد كثيراً ، وكنت أشير له بالذهاب ، فيفعل ، وكنت أدعه أكثر فيبتعد ، ونهضت فيّ نخوة الرجولة ، وإرادة الحياة ، دفعته عني أكثر ، مزقت صدري وفتحت له باباً واسعاً عريضاً ، عجب هو وتدفق ، خارجاً مني . . خارجاً مني . . كنت أتجلّل في الشارع ، والضوء ينساب كالنهر الأحمر والأصفر بين قدميّ . . وموسيقى غريبة المعالم تراوغ نفسي . . قلت : ماذا يحدث؟ إنه يذوب من دون الزجاجة . . انطلقت أسير بحماس ملحوظ في الأرصفة الحمراء



الطويلة ، المصابيح معلقة كالشمر ، والناس يضحكون . . كنت أتململ . .
أبحث عن صاحبي الذي اختفى فجأة . . لا أصدق أنه اختفي بالفعل . .
قد يكون ذهب لشراء علبة سجائر ويعود ، «ما أبشع ذلك» . قلت ، خفت ،
تخيلت عذابه ، مرارته ، وسطوته . . لو عاد فلن أتخلص منه ثانية . . ولو عاد
سأحاول التخلص منه ثانية . . ما دام يذهب في النهاية فلا خوف من
عودته . . سأنتظر ـ إن عاد ـ ذهابه . أبصرت الطريق النازفة بالضوء . أشرت
إلى سيارة أجرة عابرة فتوقفت . جاء مطر رذاذ وقبلني . . أحسست بنشوة . .
متى فقدتها؟ منذ زمن بعيد . . قلت للسائق : اذهب في جولة في المدينة . .
فتحت للرذاذ النوافذ . . كانت الطرقات والحوانيت المضيئة تتوالد ، وأطفال
صغار يتواثبون . ابتعدت عن العمارة التي أسكنها ، وتوغلت . دخلت
الأسواق المزدحمة في الليل واختلطت مع السياح . شممت أنفاس البشر
وعرقهم ، وعطورهم ، وأصواتهم . . منذ متى لم أفعل ذلك؟ ناداني صوت من
بعيد فظننته صاحبي . فزعت ، وتهيأت للقتال ، ثم فوجئت بصديق قديم لي
يحتضنني . . يقبلني ، ثم غرقت دموعه على قميصه . قال لي : [قيل لي
أنك مت] . . قلت : [كيف تراني؟] كنت هزيلاً إلى درجة كبيرة ، وكانت
عظام كتفي بارزة . . انقطعت عن أصحابي منذ أن حل بي صاحبي الذي
تركني تواً . انقطعوا هم عن زيارتي لأنني بت بصحبته . كنت أتعذّر إذا
طرقوا الباب . وكان صاحبي ينوب عني فيقول لهم : [لا يريد زيارة أحد] .
قال لي صاحبي الذي لم يتوقف عن تقبيلي : كنت مريضاً؟ قلت له :
نعم . . لكن صحتي أفضل . . أرجو أن تكونوا عاذرين لي . . ذهبنا إلى
مقهى قريب مفتوح ، على الشارع الذي امتلأ بالسياح ، طلبنا قهوة ، وتذكرنا
حكايات مضت . . دهش صاحبي وأنا أضحك بصوت مرتفع كثيراً . قال لي

بوجه مفتوح : [إنني سعيد ، لم أسمعك تضحك منذ أزمنـــة] . ذهبنا إلى مطعم واستمعنا إلى فرقة تغني . سألني صاحبي : كيف استطعت أن تتخلص منه؟ قلت له : سيعود . لا أمان له أبداً ، ولا وقت لزيارته . لا أظن أنه رحل . في انتظاري متخفٍ في مكان ما ، لست شديد التفاؤل . . أقتنص هذه الفرصة للجلوس معك . أنقل ما رأيت ، ما عرفت لأصدقائي . . قد أصبح عاجزاً عن استقبالهم ثانية . أكون في حوزته ، حيث يقفل فمي ، وينقطع صدري ، ويصبح جسمي كالحجر ، لا أستطيع أن أصف ما حدث لي ، كيف استطاع أن يختلي بي أنا طول هذه المدة؟ . . حدثته عن احتجازي ، وغيابي عن العمل ، والصور المختلفة التي يظهر بها . والأحداث التي جرت بيننا . وغرابة سلوكه . قال لي إنه رآه في أماكن متعددة ، حدثني عن زيارات قام بها لآخرين . وقال لي : إنه يتوقع زيارته أيضاً في أي لحظة . في اليوم الثاني استيقظت من نومي عند الظهر . كان رأسي ثقيلاً ، وكنت أشعر برغبة للتقيؤ . عندما فتحت عيني وجدته جالساً أمامي على نفس المقعد الداكن ، يدخن ويتأملني ، ويقول : [كنت أستمع إليك وأنت تسخر مني مع صديقك . . امتلأت غروراً . . كما خرجت منك ، أعود إليك . . من دوني لن تفعل شيئاً] . ونهض يحضر لي الماء والدواء . وحمل لي ورقة من الطبيب تدعوني لزيارته . جرعت الدواء الذي ظننت أنني سأتخلص منه أخيراً . . قال : [عندما كنت في المقهى كنت أنا أحتسي الشاي خلفك ، أراك وأنت تضحك ، أعجبتني طريقتك في الضحك ، كنت مشفقاً عليك فوجهك لم يتغير . . نفس الاصفرار والفزع . . كنت تقلد شخصاً آخر!]

فهرست



محمد عبد الملك

كنت أتأمله وأفكر.

ثم بدأت جثّته تكبر. وشفته السفلى تذوب كالطيف وتزداد رطوبة، وتهطل شيئاً أحمر. وعندما حاولت لمسه قبل أن أبتعد انطلق عيار ناري من خلفي. وقال لي رجل يرتدي بز عسكرية:

- لا تخف .. هذه ألعاب نارية!

"الجثة تطلق الرصاص"

ثم جرني من كتفي. التفتُ إلى الرجل أنظر إليه للمرة الأخيرة. كان يبتسم ابتسامة خبيثة منتصرة، وكانت شفته متورّمة وعليها دم جاف أحمر. ثم حياه العسكري تحية عسكرية ومضى بي خارجاً من القاعة. كنت أبتعد، وأسمع أصداء الموسيقى.. وكنت متأكداً هذه المرة والعسكري بجانبي كالجدار الساقط على كتفي إنني لا أتوهم.



